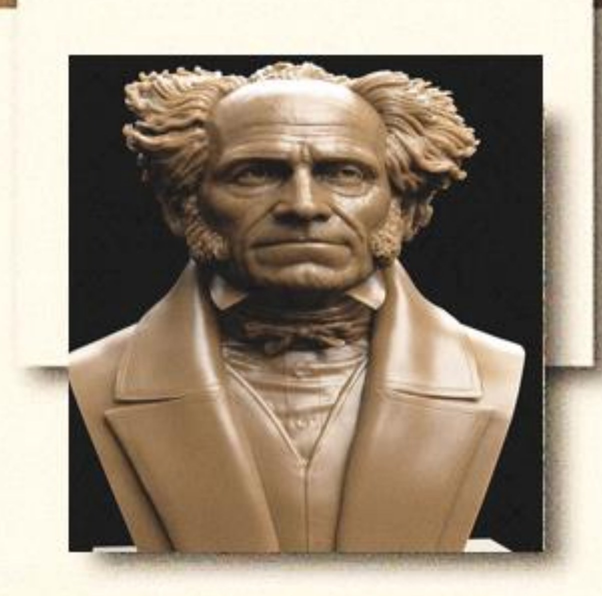
حكمة الحياة



آرثر شوبنهاور

ترجمة ،تنسيق ، غلاف

علي مولا

حكمة الحياة

آرثر شوبنهاور

ترجمة ، تنسيق ، غلاف

علي مولا

لغة: الألمانية . 27 مايو 2019

الاعتمادات: من إنتاج نوربرت إتش. لانجكاو، وهايكي لايتشسنرينج وفريق التدقيق اللغوي الموزع عبر الإنترنت

طبعته شركة طباعة الكتب Spamer في لايبزيغ .

المحتويات

مقدمة.

في هذه الصفحات، سأتناول موضوع "حكمة الحياة" بمعناها الشائع، كفن تنظيم حياتنا لتحقيق أكبر قدر ممكن من السعادة والنجاح. يمكن تسمية هذا الفن بـ"علم السعادة"، لأنه يعلمنا كيفية عيش حياة سعيدة. تُعرَّف هذه الحياة بأنها تلك التي، من وجهة نظر موضوعية بحتة، أو بعد تفكير هادئ وناضج، تكون أفضل بكثير من عدم الوجود؛ مما يعني أننا يجب أن نتمسك بها لذاتها، وليس فقط خوفًا من الموت، وأننا لا نرغب أبدًا في أن تنتهي.

الآن، ما إذا كانت الحياة البشرية تتوافق، أو يمكن أن تتوافق، مع هذا المفهوم للوجود، هو سؤال تجيب عليه فلسفتي بالنفي. ومع ذلك، على فرضية السعادة، يجب الإجابة على السؤال بالإيجاب؛ وقد أظهرت في المجلد الثاني من عملي الرئيسي (الفصل 49) أن هذه الفرضية تستند إلى خطأ أساسي. لذلك، في تطوير مخطط لحياة سعيدة، كان عليّ أن أتخلى تمامًا عن الموقف الميتافيزيقي والأخلاقي الأعلى الذي تقودني إليه نظرياتي؛ وكل ما سأقوله هنا سيستند إلى حد ما على تسوية، بقدر ما أتخذ الموقف الشائع اليومي وأتبنى الخطأ الذي يكمن في أساسه. لذلك، ستكون ملاحظاتي ذات قيمة محدودة فقط، لأن كلمة "علم السعادة" نفسها هي تعبير ملطف. علاوة على ذلك، لا أدعي الكمال؛ جزئيًا لأن الموضوع لا ينضب، وجزئيًا لأنني سأضطر إلى تكرار ما قاله الآخرون بالفعل.

الكتاب الوحيد الذي أُلِّف، بقدر ما أتذكر، لغرض مشابه لهذا الذي يحرك هذه المجموعة من الأقوال المأثورة، هو كتاب "دي يوتيليت إكس أدفيرسيس كابيندا" لكاردان، وهو جدير بالقراءة، ويمكن استخدامه لتكملة هذا العمل .صحيح أن أرسطو لديه بعض الكلمات عن علم السعادة في الفصل الخامس من الكتاب الأول من "البلاغة"؛ لكن ما يقوله لا يأتي بالكثير. نظرًا لأن التجميع ليس عملي، لم أستخدم هؤلاء الأسلاف؛ خاصة لأن عملية التجميع تفقد الفردية في الرؤية، والفردية في الرؤية

هي جوهر الأعمال من هذا النوع. بشكل عام، قال الحكماء في جميع العصور دائمًا نفس الشيء، وتصرف الحمقى، الذين يشكلون الأغلبية الساحقة في جميع الأوقات، بطريقتهم الخاصة وفعلوا العكس تمامًا؛ وسيستمر الأمر كذلك. كما يقول فولتير، سنغادر هذا العالم بنفس الحماقة والشر الذي وجدناه عند وصولنا.

الفصل الأول : التصنيف الأساسي.

يقسم أرسطو نِعم الحياة إلى ثلاث فئات: تلك التي تأتي من الخارج، وتلك التي تخص الروح، وتلك التي تخص الجسد. بناءً على هذه الفئات، يمكن تقسيم الفروق الأساسية في حياة الإنسان إلى ثلاث فئات متميزة:

1. **كينونة الإنسان** :وتشمل الشخصية بمعناها الواسع، مثل الصحة، والقوة، والجمال، والمزاج، والشخصية الأخلاقية، والذكاء، والتعليم.
2. **ما يمتلكه الإنسان** :أي الممتلكات والمقتنيات من كل نوع.
3. **مكانة الإنسان في نظر الآخرين** :أي كيف يُنظر إلى الإنسان من قبل الآخرين، أو بشكل أدق، الضوء الذي يرونه فيه، والذي يتجلى في الشرف الذي يحظى به، وفي رتبته وسمعته.

الفروق التي تندرج تحت الفئة الأولى هي تلك التي وضعتها الطبيعة بين الناس؛ ومن هذا الواقع وحده يمكننا أن نستنتج أنها تؤثر على سعادة أو تعاسة البشر بطريقة أكثر حيوية وجذرية من تلك التي تندرج تحت الفئتين التاليتين، واللتين هما مجرد نتيجة لترتيبات بشرية. مقارنة بالمزايا الشخصية الحقيقية، مثل العقل العظيم أو القلب العظيم، فإن جميع امتيازات الرتبة أو النسب، حتى الملكية، ليست سوى ملوك على المسرح مقارنة بالملوك في الحياة الحقيقية. وقد قال نفس الشيء منذ زمن بعيد متروذوروس، أول تلميذ لأبيقور، الذي كتب عنوان أحد فصوله: "السعادة التي نحصل عليها من أنفسنا أكبر من تلك التي نحصل عليها من محيطنا."

من الواضح أن العنصر الرئيسي في رفاهية الإنسان، بل في مجمل حياته، هو تكوينه الداخلي. لأن هذا هو المصدر المباشر للرضا أو عدم الرضا الداخلي الناتج عن مجموع أحاسيسه ورغباته وأفكاره؛ بينما تؤثر محيطاته عليه بشكل غير مباشر فقط. لهذا

السبب تؤثر نفس الأحداث أو الظروف الخارجية على الناس بطرق مختلفة؛ حتى مع وجود محيطات متشابهة تمامًا، يعيش كل شخص في عالمه الخاص. لأن الإنسان يدرك فقط أفكاره ومشاعره وإرادته؛ يمكن للعالم الخارجي أن يؤثر عليه فقط بقدر ما يحيي هذه الأشياء. العالم الذي يعيش فيه الإنسان يتشكل بشكل رئيسي بالطريقة التي ينظر بها إليه، وبالتالي يختلف من شخص لآخر؛ بالنسبة لأحدهم يكون قاحلاً ومملاً وسطحيًا؛ ولآخر يكون غنيًا ومثيرًا ومليئًا بالمعاني.

عند سماع الأحداث المثيرة التي حدثت في حياة شخص ما، يتمنى الكثير من الناس أن تحدث أشياء مماثلة في حياتهم أيضًا، متناسين تمامًا أنهم يجب أن يحسدوا بدلاً من ذلك القدرة العقلية التي أعطت تلك الأحداث الأهمية التي تمتلكها عندما يصفها؛ بالنسبة لشخص عبقري كانت مغامرات مثيرة؛ ولكن بالنسبة للإدراك الباهت لشخص عادي، كانت ستكون أحداثًا يومية مملة. هذا هو الحال إلى حد كبير مع العديد من قصائد غوته وبايرون، التي تستند بوضوح إلى حقائق فعلية؛ حيث يمكن للقارئ الأحمق أن يحسد الشاعر لأن العديد من الأشياء الرائعة حدثت له، بدلاً من أن يحسد تلك القوة العظيمة للخيال التي كانت قادرة على تحويل تجربة عادية إلى شيء عظيم وجميل.

بنفس الطريقة، فإن الشخص ذو المزاج الكئيب سيحول مشهداً في مأساة إلى دراما، بينما يراه الشخص المتفائل مجرد صراع مثير، ويراه الشخص البلغماتي شيئاً بلا معنى. يعتمد هذا على حقيقة أن كل حدث، لكي يتم إدراكه وتقديره، يتطلب تعاون عاملين: الموضوع والموضوع الخارجي، على الرغم من أنهما مرتبطان بشكل وثيق وضروري مثل الأكسجين والهيدروجين في الماء. لذلك، عندما يكون العامل الخارجي أو الموضوعي في تجربة ما هو نفسه فعلياً، ولكن التقدير الشخصي أو الذاتي له يختلف، فإن الحدث يكون مختلفاً تماماً في أعين الأشخاص المختلفين كما لو أن العوامل الموضوعية لم تكن متشابهة؛ لأن الذكاء البليد يرى أجمل وأفضل شيء في

العالم كواقع فقير، وبالتالي يتم تقديره بشكل ضعيف، مثل منظر طبيعي جميل في طقس ممل، أو في انعكاس كاميرا مظلمة سيئة.

بعبارة بسيطة، كل إنسان محبوس داخل حدود وعيه الخاص، ولا يمكنه تجاوز تلك الحدود مباشرةً أكثر مما يمكنه تجاوز جلده؛ لذلك فإن المساعدة الخارجية ليست ذات فائدة كبيرة له. على المسرح، يكون أحدهم أميراً، وآخر وزيراً، وثالث خادماً أو جندياً أو جنرالاً، وهكذا - مجرد اختلافات خارجية: الحقيقة الداخلية، جوهر كل هذه المظاهر هو نفسه - ممثل فقير، مع كل قلقه. في الحياة، الأمر هو نفسه. اختلافات الرتبة والثروة تعطي كل إنسان دوره ليلعبه، لكن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال اختلافاً في السعادة والسرور الداخلي؛ هنا أيضاً، هناك نفس الكائن في الجميع - إنسان فقير، مع صعوباته ومشاكله. على الرغم من أن هذه قد تنشأ في كل حالة من أسباب مختلفة، إلا أنها في جوهرها متشابهة في جميع أشكالها، مع درجات من الشدة التي تختلف بلا شك، ولكنها لا تتوافق بأي حال من الأحوال مع الدور الذي يجب على الإنسان أن يلعبه، أو مع وجود أو غياب المكانة والثروة.

بما أن كل شيء موجود أو يحدث للإنسان موجود فقط في وعيه ويحدث له وحده، فإن أهم شيء للإنسان هو تكوين هذا الوعي، الذي يكون في معظم الحالات أكثر أهمية بكثير من الظروف التي تشكل محتواه. كل الفخر والسرور في العالم، المنعكس في وعي غبي، فقير بالفعل مقارنة بخيال سيرفانتس وهو يكتب دون كيشوت في سجن بائس. النصف الموضوعي من الحياة والواقع في يد القدر، وبالتالي يأخذ أشكالاً مختلفة في حالات مختلفة: النصف الذاتي هو أنفسنا، وفي الأساسيات يبقى دائماً كما هو.

لذلك، فإن حياة كل إنسان تحمل نفس الطابع طوال الوقت، مهما تغيرت ظروفه الخارجية؛ فهي مثل سلسلة من التنويعات على موضوع واحد. لا يمكن لأحد أن يتجاوز فرديته الخاصة. الحيوان، مهما كانت الظروف التي يوضع فيها، يبقى ضمن

الحدود الضيقة التي حددتها له الطبيعة بشكل لا رجعة فيه؛ لذلك، يجب أن تظل محاولاتنا لجعل الحيوان الأليف سعيدًا ضمن نطاق طبيعته، ومحدودة بما يمكنه الشعور به. وهكذا هو الحال مع الإنسان؛ فمقدار السعادة التي يمكنه تحقيقها يتحدد مسبقًا بفرديته. وهذا ينطبق بشكل خاص على القدرات العقلية، التي تحدد مرة واحدة وإلى الأبد قدرته على أنواع السعادة الأعلى. إذا كانت هذه القدرات صغيرة، فلن تكفي أي جهود خارجية، ولا شيء يمكن أن يفعله له زملاؤه أو الحظ، لرفعه فوق الدرجة العادية من السعادة والسرور البشري، حتى وإن كانت نصف حيوانية؛ موارده الوحيدة هي شهواته الحسية، حياة أسرية دافئة ومبهجة في أفضل الأحوال، صحبة منخفضة وتسالي مبتذلة؛ حتى التعليم، بشكل عام، لا يمكن أن يفيد كثيرًا، إن وجد، في توسيع آفاقه. لأن أعلى وأشد أنواع السعادة تنوعًا وديمومة هي تلك التي تخص العقل، مهما خدعتنا شبابنا في هذا الصدد؛ وسعادة العقل تعتمد بشكل رئيسي على قدرات العقل. من الواضح إذن أن سعادتنا تعتمد إلى حد كبير على ما نحن عليه، على فرديتنا، بينما يُفهم القدر أو المصير عمومًا على أنه يعني فقط ما نملكه، أو سمعتنا. قد يتحسن حظنا، لكننا لا نطلب الكثير منه إذا كنا أغنياء داخليًا؛ من ناحية أخرى، يبقى الأحمق أحمقًا، وغبيًا، حتى آخر لحظة في حياته، حتى لو كان محاطًا بالحوريات في الجنة. لهذا السبب يقول غوته في "الديوان الغربي الشرقي" أن كل إنسان، سواء كان يحتل مكانة منخفضة في الحياة، أو يظهر كمنتصر، يشهد على أن الشخصية هي العامل الأكبر في السعادة.

" الشعب والخادم والفاتح يعترفون، في كل الأوقات، أن أعظم سعادة لأبناء الأرض هي فقط الشخصية".

كل شيء يؤكد حقيقة أن العنصر الذاتي في الحياة هو أكثر أهمية لسعادتنا وراحتنا من العنصر الموضوعي. من الأمثال مثل "الجوع هو أفضل صلصة" و"الشباب

والشيخوخة لا يمكن أن يعيشا معاً"، وصولاً إلى حياة العبقري والقديس .الصحة تفوق جميع النعم الأخرى لدرجة أنه يمكن القول حقاً إن المتسول الصحي أسعد من الملك المريض. المزاج الهادئ والمبتهج، السعيد بالتمتع بجسم سليم تماماً، العقل الواضح والنشط والمتعمق الذي يرى الأشياء كما هي، الإرادة المعتدلة واللطيفة، وبالتالي الضمير الصالح - هذه هي الامتيازات التي لا يمكن لأي رتبة أو ثروة أن تعوضها أو تحل محلها.

ما يكون عليه الإنسان في ذاته، وما يصاحبه عندما يكون وحيداً، وما لا يمكن لأحد أن يعطيه أو يأخذه منه، هو بوضوح أكثر أهمية له من كل ما يملكه من ممتلكات، أو حتى ما قد يكون عليه في أعين العالم. الرجل المثقف في عزلة تامة يجد ترفيهاً ممتازاً في أفكاره وخيالاته، بينما لا يمكن لأي قدر من التنوع أو المتعة الاجتماعية، المسارح، الرحلات والترفيه، أن يبعد الملل عن الشخص البليد. الشخصية الجيدة، المعتدلة، واللطيفة يمكن أن تكون سعيدة في الظروف المحتاجة، بينما الرجل الطماع، الحاسد والشرير، حتى لو كان أغنى رجل في العالم، يعيش في بؤس.

بل وأكثر من ذلك؛ بالنسبة لمن يتمتع بفرحة دائمة بشخصية فريدة، مع درجة عالية من الذكاء، فإن معظم الملذات التي يسعى إليها البشر تكون ببساطة زائدة عن الحاجة؛ بل إنها تكون عبئاً ومشكلة. وهكذا يقول هوراس عن نفسه، أنه مهما كان عدد الذين حُرموا من كماليات الحياة، هناك واحد على الأقل يمكنه العيش بدونها:

"الجواهر، الرخام، العاج، التماثيل التيرينية، اللوحات، الفضة، الملابس المصبوغة بالأرجوان الغيتولي، هناك من لا يملكها، وهناك من لا يهتم بامتلاكها".

وعندما رأى سقراط مختلف السلع الفاخرة معروضة للبيع، قال: كم هناك في العالم مما لا أريده.

العنصر الأول والأكثر أهمية في سعادتنا في الحياة هو ما نحن عليه - شخصيتنا، إن لم يكن لسبب آخر سوى أنها عامل ثابت يظهر في جميع الظروف .بالإضافة إلى ذلك، وعلى عكس النعم التي توصف تحت العناوين الأخرى، فهي ليست لعبة القدر ولا يمكن انتزاعها منا؛ وبالتالي، فهي تتمتع بقيمة مطلقة مقارنة بالقيمة النسبية للعناصر الأخرى. نتيجة لذلك، من الصعب أكثر مما يعتقد الناس عادةً التأثير على الإنسان من الخارج. ولكن هنا يأتي العامل القوي، الزمن، ويطالب بحقوقه، وتحت تأثيره تتلاشى المزايا الجسدية والعقلية تدريجياً. وحده الطابع الأخلاقي يبقى بعيداً عن متناول الزمن.

في ضوء التأثير المدمر للزمن، يبدو بالفعل أن النعم المذكورة تحت العناوين الأخرى، التي لا يمكن للزمن أن يسلبها منا مباشرة، تتفوق على تلك الأولى. يمكن المطالبة بميزة أخرى لها، وهي أنها بطبيعتها موضوعية وخارجية، فهي قابلة للتحقيق، ويُتاح للجميع على الأقل إمكانية الحصول عليها؛ بينما ما هو ذاتي ليس مفتوحاً لنا لاكتسابه، بل يدخل حياتنا بنوع من الحق الإلهي، ويبقى مدى الحياة، ثابتاً، غير قابل للتغيير، ومصيراً لا مفر منه.

دعني أقتبس تلك الأبيات التي يصف فيها غوته كيف يُحدد لكل إنسان قدر لا يتغير في ساعة ولادته، بحيث يمكنه أن يتطور فقط ضمن الخطوط المرسومة له، كما لو كانت بتأثير النجوم: وكيف تعلن العرافة والأنبياء أن الإنسان لا يمكنه الهروب من نفسه، ولا يمكن لأي قوة زمنية أن تغير المسار الذي وُضع عليه حياته:

"كما في اليوم الذي أُعطيت فيه للعالم، كانت الشمس في تحية للكواكب، نمت وتطورت باستمرار وفقاً للقانون الذي بدأت به. هكذا يجب أن تكون، لا يمكنك الهروب من نفسك، هكذا قالت العرافات والأنبياء؛ ولا الزمن ولا القوة يمكن أن يغيرا الشكل المطبوع الذي يتطور حياً".الشيء الوحيد الذي يمكننا تحقيقه هو الاستفادة القصوى من الصفات الشخصية التي نمتلكها، وبالتالي اتباع المساعي التي

تستدعيها فقط، والسعي نحو نوع الكمال الذي تسمح به وتجنب كل ما عدا ذلك؛ وبالتالي، اختيار الموقف، المهنة، وأسلوب الحياة الأكثر ملاءمة لتطويرها.

تخيل رجلاً يتمتع بقوة هيركولية، ولكنه مجبر بسبب الظروف على اتباع مهنة تتطلب الجلوس، مثل عمل يدوي دقيق أو الانخراط في دراسة وعمل عقلي يتطلب قدرات مختلفة تماماً عن تلك التي يمتلكها، مما يجبره على ترك القوى التي يتميز بها دون استخدام. رجل في هذا الوضع لن يشعر بالسعادة طوال حياته .سيكون حال الرجل ذو القدرات العقلية العالية الذي يضطر لتركها غير مطورة وغير مستخدمة في مهنة لا تتطلبها، مثل العمل البدني الذي لا يمتلك القوة الكافية له، أكثر بؤساً. في مثل هذه الحالة، يجب علينا، خاصة في الشباب، تجنب الوقوع في فخ الغرور، وعدم نسب قدرات زائدة لأنفسنا ليست موجودة.

بما أن النعم المذكورة تحت العنوان الأول تفوق بشكل واضح تلك الموجودة تحت العنوانين الآخرين، فمن الواضح أن المسار الأكثر حكمة هو السعي للحفاظ على صحتنا وتنمية قدراتنا، بدلاً من جمع الثروة؛ ولكن يجب ألا يُفهم هذا على أنه يعني إهمال الحصول على ما يكفي من ضروريات الحياة. الثروة، بمعناها الدقيق، أي الفائض الكبير، يمكن أن تفعل القليل من أجل سعادتنا؛ وكثير من الأغنياء يشعرون بالتعاسة لأنهم يفتقرون إلى الثقافة العقلية الحقيقية أو المعرفة، وبالتالي ليس لديهم اهتمامات موضوعية تؤهلهم للانشغال العقلي.

فما وراء تلبية بعض الاحتياجات الحقيقية والطبيعية، كل ما يمكن أن تحققه الثروة له تأثير ضئيل على سعادتنا، بالمعنى الصحيح للكلمة؛ في الواقع، الثروة تعكر صفوها، لأن الحفاظ على الممتلكات يتطلب الكثير من القلق الذي لا مفر منه. ومع ذلك، فإن الناس أكثر اهتماماً بألف مرة بأن يصبحوا أغنياء بدلاً من اكتساب الثقافة، على الرغم من أنه من المؤكد أن ما يكون عليه الإنسان يساهم في سعادته أكثر

بكثير مما يمتلكه. لذلك قد ترى العديد من الناس، مجتهدين مثل النمل، مشغولين بلا توقف من الصباح إلى الليل في محاولة لزيادة كومة الذهب الخاصة بهم.

ما وراء الأفق الضيق للوسائل لتحقيق هذا الهدف، لا يعرفون شيئاً؛ عقولهم فارغة، وبالتالي غير قابلة لأي تأثير آخر. أعلى الملذات، تلك العقلية، لا يمكن الوصول إليها بالنسبة لهم، ويحاولون عبثاً استبدالها بالملذات الحسية العابرة التي ينغمسون فيها، والتي تدوم لفترة قصيرة فقط وبتكلفة باهظة .وإذا كانوا محظوظين، فإن نضالهم يؤدي إلى حصولهم على كومة كبيرة من الذهب، التي يتركونها لورثتهم، إما لزيادتها أكثر أو لتبديدها في التبذير. حياة كهذه، على الرغم من متابعتها بشعور من الجدية ومظهر من الأهمية، هي سخيفة تماماً مثل العديد من الآخرين الذين لديهم قبعة المهرج كرمز لهم.

ما يمتلكه الإنسان في داخله هو العنصر الرئيسي في سعادته. ولأن هذا العنصر عادة ما يكون ضئيلاً جداً، فإن معظم الذين يتجاوزون صراع الفقر يشعرون في أعماقهم بعدم السعادة تماماً مثل أولئك الذين لا يزالون يعانون منه. عقولهم فارغة، خيالهم باهت، أرواحهم فقيرة، ولذلك يلجأون إلى صحبة من يشبههم - لأن الطيور على أشكالها تقع - حيث يسعون معاً للترفيه والتسلية، والتي تتكون في الغالب من المتع الحسية، والترفيه من كل نوع، وأخيراً، في الإفراط والانحلال. يدخل شاب من عائلة غنية الحياة بميراث كبير، وغالباً ما ينفقه في فترة زمنية قصيرة بشكل مفرط؛ ولماذا؟ ببساطة لأن العقل هنا أيضاً فارغ وخاوٍ، وبالتالي يشعر الرجل بالملل من الحياة. لقد أُرسل إلى العالم غنياً من الخارج ولكنه فقير من الداخل، وكانت محاولته الباطلة هي جعل ثروته الخارجية تعوض عن فقره الداخلي، بمحاولة الحصول على كل شيء من الخارج، مثل رجل عجوز يسعى لتقوية نفسه كما حاول الملك داود أو مارشال دي ريكس. وهكذا في النهاية، يصبح الشخص الفقير داخلياً فقيراً أيضاً من الخارج.

لا حاجة لي للتأكيد على أهمية النوعين الآخرين من النعم التي تشكل سعادة الحياة البشرية؛ في الوقت الحاضر، قيمة امتلاكها معروفة جداً ولا تحتاج إلى إعلان. الفئة الثالثة، صحيح، قد تبدو مقارنة بالثانية ذات طابع أثيري جداً، لأنها تتكون فقط من آراء الآخرين. ومع ذلك، يجب على الجميع السعي للحصول على السمعة، أي الاسم الجيد. أما الرتبة، فيجب أن يطمح إليها فقط أولئك الذين يخدمون الدولة، والشهرة لقلة قليلة جداً. في أي حال، تُعتبر السمعة كنزاً لا يقدر بثمن، والشهرة أغلى النعم التي يمكن أن يحصل عليها الإنسان - الصوف الذهبي، كما كان، للمختارين: بينما يفضل الحمقى فقط الرتبة على الملكية. الفئتان الثانية والثالثة، علاوة على ذلك، هما سبب ونتيجة متبادلة؛ بقدر ما تكون مقولة بيترونيوس، "habes habeberis"، صحيحة؛ وعلى العكس، فإن تفضيل الآخرين، بجميع أشكاله، غالباً ما يضعنا في طريق الحصول على ما نريد.

الفصل الثاني: الشخصية، أو ماهية الإنسان .

لقد رأينا بالفعل، بشكل عام، أن ما يكون عليه الإنسان يساهم بشكل أكبر في سعادته مقارنة بما يمتلكه أو كيف ينظر إليه الآخرون. ما يكون عليه الإنسان، وما يمتلكه في شخصه، هو دائماً الأمر الرئيسي الذي يجب مراعاته؛ لأن فرديته ترافقه دائماً وفي كل مكان، وتضفي لونها على جميع تجاربه. في كل نوع من أنواع المتعة، على سبيل المثال، تعتمد اللذة بشكل رئيسي على الشخص نفسه. الجميع يعترف بهذا فيما يتعلق بالمتعة الجسدية، ومدى صحة ذلك أكثر فيما يتعلق بالمتعة الفكرية. عندما نستخدم التعبير الإنجليزي "to enjoy one's self" (الاستمتاع بالنفس)، فإننا نستخدم عبارة لافتة ومناسبة جداً؛ لأننا نقول، ليس "هو يستمتع بباريس"، بل "هو يستمتع بنفسه في باريس ."بالنسبة لشخص يمتلك فردية سيئة التكوين، تكون كل المتعة مثل النبيذ الرقيق في فم مملوء بالمرارة. لذلك، في النعم وكذلك في المصائب، يعتمد الأمر أقل على ما يحدث لنا وأكثر على الطريقة التي نتعامل بها معه، أي على نوع ودرجة حساسيتنا العامة. ما يكون عليه الإنسان وما يمتلكه في نفسه - بكلمة واحدة، الشخصية، بكل ما تتضمنه، هو العامل الوحيد المباشر والفوري في سعادته ورفاهيته. كل شيء آخر هو وسيط وغير مباشر، ويمكن تحييد تأثيره وإحباطه؛ لكن تأثير الشخصية لا يمكن أبداً. لهذا السبب، فإن الحسد الذي تثيره الصفات الشخصية هو الأكثر شراسة من بين جميع أنواع الحسد - كما أنه الأكثر تمويهاً بعناية.

علاوة على ذلك، فإن تكوين وعينا هو العنصر الدائم والحاضر دائماً في كل ما نقوم به أو نعانيه؛ فرديتنا تعمل باستمرار، بدرجات متفاوتة، في كل لحظة من حياتنا: جميع التأثيرات الأخرى مؤقتة، عرضية، عابرة، وخاضعة لكل أنواع الصدفة والتغيير. لهذا السبب يقول أرسطو: ليس الثروة بل الشخصية هي التي تدوم.

ولنفس السبب، يمكننا تحمل المصيبة التي تأتي إلينا من الخارج بسهولة أكبر من تلك التي نجلبها على أنفسنا؛ لأن الحظ قد يتغير دائماً، لكن الشخصية لا تتغير. لذلك، فإن النعم الذاتية - الطبيعة النبيلة، العقل القادر، المزاج الفرح، الروح المرحة، والجسم السليم تماماً، بكلمة واحدة، العقل السليم في الجسم السليم، هي العناصر الأولى والأهم في السعادة؛ لذا يجب أن نكون أكثر اهتماماً بتعزيز هذه الصفات والحفاظ عليها بدلاً من امتلاك الثروة الخارجية والشرف الخارجي.

ومن بين كل هذه الصفات، الصفة التي تجعلنا سعداء بشكل مباشر هي تدفق الروح المرحة؛ لأن هذه الصفة الممتازة هي مكافأتها الفورية. الشخص المبتهج والمرح دائماً لديه سبب وجيه لذلك - وهو ببساطة أنه كذلك. لا يوجد شيء يمكنه أن يعوض فقدان كل نعمة أخرى مثل هذه الصفة. إذا كنت تعرف شخصاً شاباً، وسيماً، غنياً ومحبوباً، وتريد أن تعرف ما إذا كان سعيداً، اسأل: هل هو مبتهج ومرح؟ - وإذا كان كذلك، فما أهمية ما إذا كان شاباً أو عجوزاً، مستقيماً أو أحدباً، فقيراً أو غنياً؟ - إنه سعيد. في أيام شبابي، فتحت كتاباً قديماً ووجدت هذه الكلمات: إذا كنت تضحك كثيراً، فأنت سعيد؛ إذا كنت تبكي كثيراً، فأنت غير سعيد؛ - ملاحظة بسيطة جداً، بلا شك؛ ولكن لأنها بسيطة جداً، لم أستطع نسيانها أبداً، حتى وإن كانت بديهية للغاية. لذلك، إذا طرقت البهجة بابنا، يجب أن نفتحها على مصراعيها، لأنها لا تأتي أبداً في وقت غير مناسب؛ بدلاً من ذلك، غالباً ما نتردد في السماح لها بالدخول .نريد أن نتأكد تماماً من أن لدينا كل الأسباب لنكون راضين؛ ثم نخشى أن تتعارض البهجة مع التأملات الجادة أو الهموم الثقيلة. البهجة هي مكسب مباشر وفوري - العملة الحقيقية للسعادة، وليست مثل كل شيء آخر مجرد شيك على البنك؛ لأنها وحدها تجعلنا سعداء في اللحظة الحالية، وهذه هي النعمة الأعلى لكائنات مثلنا، الذين وجودهم ليس سوى لحظة ضئيلة بين أبدين. يجب أن يكون الهدف الأسمى لكل مساعينا نحو السعادة هو تأمين وتعزيز هذا الشعور بالبهجة.

من المؤكد أن لا شيء يساهم في البهجة بقدر الصحة، ولا شيء يقلل منها بقدر الثروة. أليس في الطبقات الدنيا، ما يسمى بالطبقات العاملة، وخاصة أولئك الذين يعيشون في الريف، نجد الوجوه المبتهجة والقانعة؟ وأليس بين الأغنياء، الطبقات العليا، نجد الوجوه المليئة بالسوء والانزعاج؟ لذلك يجب أن نحاول قدر الإمكان الحفاظ على مستوى عالٍ من الصحة؛ لأن البهجة هي الزهرة التي تنمو منها. لا حاجة لي أن أقول ما يجب فعله للبقاء بصحة جيدة - تجنب كل أنواع الإفراط، كل العواطف العنيفة وغير السارة، كل الإجهاد العقلي، ممارسة التمارين اليومية في الهواء الطلق، الاستحمام البارد والتدابير الصحية المماثلة. لأنه بدون كمية مناسبة من التمارين اليومية لا يمكن لأحد أن يبقى بصحة جيدة؛ جميع عمليات الحياة تتطلب التمرين لأداء وظائفها بشكل صحيح، ليس فقط للأجزاء المعنية بشكل مباشر، ولكن أيضاً للجسم كله. كما يقول أرسطو بحق، الحياة هي الحركة؛ إنها جوهرها. الحركة المستمرة والسريعة تجري في كل جزء من الكائن الحي. القلب، بنظامه المعقد من الانقباض والانبساط المزدوج، ينبض بقوة وبدون تعب؛ مع كل نبضة يدفع الدم كله عبر الشرايين والأوردة والشعيرات الدموية؛ الرئتان تعملان مثل محرك بخاري، بدون توقف؛ الأمعاء دائماً في حركة دودية؛ الغدد تمتص وتفرز باستمرار؛ حتى الدماغ له حركة مزدوجة خاصة به، مع كل نبضة من النبض وكل نفس نتنفسه. عندما لا يستطيع الناس ممارسة أي تمرين على الإطلاق، كما هو الحال مع الأعداد الكبيرة التي تُجبر على حياة الجلوس، هناك تفاوت صارخ ومميت بين الخمول الخارجي والاضطراب الداخلي. لأن هذه الحركة الداخلية المستمرة تتطلب بعض النظير الخارجي، وغيابها ينتج تأثيرات مثل تلك العواطف التي نضطر إلى كبتها. حتى الأشجار يجب أن تهتز بالرياح لكي تزدهر. القاعدة التي تجد تطبيقها هنا يمكن التعبير عنها بإيجاز باللاتينية:

هي: "كل حركة، كلما كانت أسرع، كانت أكثر حركة."

مدى اعتماد سعادتنا على معنوياتنا، وهذه بدورها تعتمد على حالتنا الصحية، يمكن رؤيته من خلال مقارنة التأثير الذي تتركه نفس الظروف أو الأحداث الخارجية علينا عندما نكون بصحة جيدة وقوية مع التأثير الذي تتركه عندما نكون مكتئبين ومضطربين بسبب سوء الصحة. ليس ما تكون عليه الأشياء موضوعياً وفي ذاتها، بل ما تكون عليه بالنسبة لنا، في طريقتنا في النظر إليها، هو ما يجعلنا سعداء أو العكس. كما يقول إبيكتيتوس، "الناس لا يتأثرون بالأشياء، بل بأفكارهم حول الأشياء". وبشكل عام، تسعة أعشار سعادتنا تعتمد على الصحة وحدها. مع الصحة، كل شيء يصبح مصدرًا للمتعة؛ وبدونها، لا شيء آخر، مهما كان، يكون ممتعًا؛ حتى النعم الشخصية الأخرى - العقل العظيم، المزاج السعيد - تتضاءل وتتحطم بسبب نقصها. لذلك، من المنطقي حقاً أنه عندما يلتقي شخصان، فإن أول شيء يفعلانه هو الاستفسار عن صحة بعضهما البعض، والتعبير عن الأمل في أنها جيدة؛ لأن الصحة الجيدة هي العنصر الأكثر أهمية في السعادة البشرية. يتبع من كل هذا أن أكبر الحماقات هي التضحية بالصحة من أجل أي نوع آخر من السعادة، مهما كان، من أجل الربح، التقدم، التعلم أو الشهرة، ناهيك عن الملذات الحسية العابرة. كل شيء آخر يجب أن يؤجل لها.

ولكن مهما كانت الصحة تساهم في تدفق الروح المعنوية الجيدة التي هي أساسية لسعادتنا، فإن الروح المعنوية الجيدة لا تعتمد بالكامل على الصحة؛ لأن الشخص قد يكون سليمًا تمامًا في بنيته الجسدية ومع ذلك يمتلك مزاجًا كئيبًا ويكون عمومًا مستسلمًا للأفكار الحزينة. السبب النهائي لهذا بلا شك يكمن في التكوين الجسدي الفطري، وبالتالي غير القابل للتغيير، خاصة في العلاقة الأكثر أو الأقل طبيعية بين حساسية الشخص وطاقته العضلية والحيوية .الحساسية غير الطبيعية تنتج عدم تساوي في الروح المعنوية، مزاج كئيب غالب، مع نوبات دورية من الحيوية غير المقيدة. العبقري هو الشخص الذي تكون قوته العصبية أو حساسيته زائدة بشكل كبير؛ كما لاحظ أرسطو بشكل صحيح، "الرجال المتميزون في الفلسفة، السياسة،

الشعر أو الفن يبدو أنهم جميعًا ذوو مزاج كئيب". هذا بلا شك هو المقطع الذي كان في ذهن شيشرون عندما قال، كما يقول غالبًا، "أرسطو يقول إن جميع العباقرة كئيبون". شكسبير عبر بشكل جميل عن هذا التنوع الجذري والفطري في المزاج في تلك الأسطر في "تاجر البندقية:"

لقد صنعت الطبيعة زملاء غريبين في وقتها؛ بعضهم سيظل دائمًا يطل من خلال عيونهم، ويضحك مثل الببغاوات على عازف القربة؛ وآخرون بملامح حامضة، لن يظهروا أسنانهم في ابتسامة، حتى لو أقسم نيستور أن النكتة مضحكة.

هذا هو الفرق الذي يرسمه أفلاطون بين {Greek: eukolos} و {Greek: dyskolos}—الرجل ذو الطبع السهل، والرجل ذو الطبع الصعب—لإثبات ذلك، يشير إلى درجات التقبل المختلفة التي يظهرها الناس للانطباعات السارة والمؤلمة؛ بحيث يضحك رجل على ما يجعل آخر ييأس. كقاعدة عامة، كلما كانت التقبل للانطباعات غير السارة أقوى، كانت التقبل للانطباعات السارة أضعف، والعكس صحيح. إذا كان من الممكن أن يكون الحدث جيدًا أو سيئًا بنفس القدر، فإن {Greek: dyskolos}سيشعر بالانزعاج أو الحزن إذا كانت النتيجة غير مواتية، ولن يفرح إذا كانت سعيدة. من ناحية أخرى، فإن {Greek: eukolos} لن يقلق أو يضطرب بشأن نتيجة غير مواتية، بل سيفرح إذا كانت جيدة. إذا نجح أحدهم في تسعة من عشرة محاولات، فلن يكون سعيدًا، بل منزعجًا لأن واحدة قد فشلت؛ بينما الآخر، إذا نجحت واحدة فقط، سيجد العزاء في ذلك ويبقى مبتهجًا. ولكن هنا مثال آخر على الحقيقة، أن القليل من الشرور يكون بدون تعويض؛ لأن المصائب والمعاناة التي يتعين على{Greek: auskoloi} ، أي الأشخاص ذوي الطابع الكئيب والقلق، التغلب عليها، هي في الغالب أكثر خيالية وبالتالي أقل واقعية من تلك التي تصيب الأشخاص المرحين والمهملين؛ لأن الشخص الذي يرسم كل شيء باللون الأسود، والذي يخشى دائمًا الأسوأ ويتخذ التدابير وفقًا لذلك، لن يخيب أمله كثيرًا

في هذا العالم، مثل الشخص الذي ينظر دائمًا إلى الجانب المشرق من الأمور. وعندما يلعب اضطراب عصبي أو خلل في الجهاز الهضمي دورًا في تعزيز الميل الفطري إلى الكآبة، قد يصل هذا الميل إلى درجة تجعل الانزعاج الدائم ينتج عنه ملل من الحياة. وهكذا ينشأ الميل إلى الانتحار، الذي قد يتسبب فيه حتى أبسط الأمور غير السارة؛ بل عندما يصل الميل إلى أسوأ أشكاله، قد يحدث ذلك دون سبب معين، ولكن قد يقرر الشخص إنهاء حياته ببساطة لأنه غير سعيد بشكل دائم، ثم ينفذ قراره ببرود وثبات؛ كما يمكن رؤيته من الطريقة التي ينتظر بها المريض، عندما يوضع تحت الإشراف، اللحظة الأولى غير المحروسة، عندما يمكنه استخدام الوسائل الطبيعية والمرحب بها لتحقيق الإفراج. حتى الشخص الأكثر صحة، وربما الأكثر بهجة، قد يقرر الموت في ظل ظروف معينة؛ عندما تصل معاناته، أو مخاوفه من بعض المصائب الحتمية، إلى درجة تفوق رعب الموت. الفرق الوحيد يكمن في درجة المعاناة اللازمة لتحقيق الفعل القاتل، وهي درجة ستكون عالية في حالة الشخص المبتهج، ومنخفضة في حالة الشخص الكئيب. كلما زادت الكآبة، انخفضت الدرجة اللازمة؛ في النهاية، قد تنخفض إلى الصفر. ولكن إذا كان الشخص مبتهجًا، وتدعمه صحته الجيدة، فإنه يتطلب درجة عالية من المعاناة ليضع يديه على نفسه. هناك خطوات لا حصر لها في المقياس بين الطرفين المتطرفين للانتحار، الانتحار الذي ينبع فقط من تكثيف مرضي للكآبة الفطرية، والانتحار للشخص الصحي والمبتهج، الذي لديه أسباب موضوعية تمامًا لإنهاء وجوده.

الجمال هو جزئيًا مسألة صحة. يمكن اعتباره ميزة شخصية؛ على الرغم من أنه لا يساهم بشكل مباشر في سعادتنا. إنه يفعل ذلك بشكل غير مباشر، من خلال تأثيره على الآخرين؛ وهو ليس ميزة غير مهمة، حتى بالنسبة للرجل. الجمال هو رسالة توصية مفتوحة، تهيئ القلب لتفضيل الشخص الذي يقدمه. كما قيل بشكل جيد في هذه الأسطر من هوميروس، فإن هبة الجمال ليست شيئًا يمكن التخلص منه بخفة، تلك الهبة المجيدة التي لا يمكن أن يمنحها سوى الآلهة وحدهم

أكثر الاستطلاعات العامة تظهر لنا أن العوين الرئيسيين للسعادة البشرية هما الألم والملل. يمكننا أن نذهب أبعد من ذلك، ونقول إنه بقدر ما نكون محظوظين بما يكفي للابتعاد عن أحدهما، نقترب من الآخر. تقدم الحياة، في الواقع، تذبذبًا عنيفًا بين الاثنين. السبب في ذلك هو أن كل من هذين القطبين يقف في تناقض مزدوج مع الآخر، خارجي أو موضوعي، وداخلي أو ذاتي .الظروف المحتاجة والفقر ينتجان الألم؛ بينما، إذا كان الرجل أكثر من ميسور الحال، فإنه يشعر بالملل. وفقًا لذلك، بينما تنخرط الطبقات الدنيا في صراع لا ينتهي مع الحاجة، أي مع الألم، فإن الطبقات العليا تخوض معركة مستمرة وغالبًا ما تكون يائسة مع الملل.{1} التناقض الداخلي أو الذاتي ينشأ من حقيقة أن التقبل للألم يختلف عكسيًا مع التقبل للملل، لأن التقبل يتناسب طرديًا مع القوة العقلية. دعني أشرح. العقل البليد يرتبط، كقاعدة عامة، بحساسيات بليدة، أعصاب لا يمكن لأي محفز أن يؤثر عليها، مزاج، باختصار، لا يشعر بالألم أو القلق كثيرًا، مهما كان كبيرًا أو رهيبًا. الآن، البلادة الفكرية هي في جوهرها فراغ الروح الذي يظهر على العديد من الوجوه، حالة ذهنية تكشف عن نفسها من خلال اهتمام دائم وحيوي بكل الظروف التافهة في العالم الخارجي. هذا هو المصدر الحقيقي للملل—لهاث مستمر وراء الإثارة، من أجل إيجاد ذريعة لإعطاء العقل والروح شيئًا يشغلهما. نوع الأشياء التي يختارها الناس لهذا الغرض يظهر أنهم ليسوا دقيقين جدًا، كما تشهد على ذلك وسائل الترفيه البائسة التي يلجأون إليها، وأفكارهم عن المتعة الاجتماعية والمحادثة: أو مرة أخرى، عدد الأشخاص الذين يثرثرون على عتبة الباب أو يتطلعون من النافذة. يرجع ذلك أساسًا إلى هذا الفراغ الداخلي للروح أن الناس يبحثون عن المجتمع، الترفيه، التسلية، الفخامة من كل نوع، مما يؤدي بالكثيرين إلى الإسراف والبؤس. لا شيء يحمي من هذا البؤس مثل الثروة الداخلية، ثروة العقل، لأنه كلما زادت، قل الفراغ الذي تتركه للملل. النشاط الذي لا ينضب للفكر! العثور على مواد جديدة للعمل عليها في الظواهر المتنوعة للذات والطبيعة، والقدرة والاستعداد لتشكيل تركيبات جديدة منها،—هناك شيء ينشط العقل، وبصرف النظر عن لحظات الاسترخاء، يضعه بعيدًا عن متناول الملل.

حاشية :وتلتقي الأضداد؛ لأن أدنى حالة من الحضارة، حياة البدو أو الحياة المتنقلة، تجد نظيرها في أعلى حالة، حيث يكون الجميع في بعض الأحيان سائحين. كانت المرحلة الأولى حالة من الضرورة؛ أما الأخيرة فهي علاج للملل.

ولكن، من ناحية أخرى، فإن هذا المستوى العالي من الذكاء متجذر في درجة عالية من الحساسية، وقوة إرادة أكبر، وشغف أكبر؛ ومن اتحاد هذه الصفات تأتي زيادة القدرة على العاطفة، وحساسية متزايدة لكل من الألم العقلي والجسدي، وعدم صبر أكبر على العقبات، واستياء أكبر من الانقطاع؛—كل هذه الاتجاهات تتعزز بقوة الخيال، والطابع الحي لمجموعة الأفكار بأكملها، بما في ذلك ما هو غير سار. ينطبق هذا، بدرجات متفاوتة، على كل خطوة في السلم الطويل للقوة العقلية، من أحمق تمامًا إلى أعظم عبقري عاش على الإطلاق. لذلك، كلما كان الشخص أقرب، سواء من وجهة نظر ذاتية أو موضوعية، إلى أحد مصادر المعاناة في الحياة البشرية، كان أبعد عن الآخر. وهكذا، فإن الميل الطبيعي للإنسان سيقوده إلى جعل عالمه الموضوعي يتوافق مع عالمه الذاتي قدر الإمكان؛ أي أنه سيتخذ أكبر التدابير ضد ذلك الشكل من المعاناة الذي يكون أكثر عرضة له .الرجل الحكيم سيسعى، قبل كل شيء، إلى الحرية من الألم والإزعاج، الهدوء والراحة، وبالتالي حياة هادئة ومتواضعة، مع أقل عدد ممكن من المواجهات؛ وهكذا، بعد قليل من الخبرة مع ما يسمى زملائه البشر، سيختار العيش في عزلة، أو حتى، إذا كان رجلاً ذا عقل عظيم، في وحدة. لأنه كلما كان لدى الإنسان أكثر في نفسه، قل ما يريده من الآخرين،—بل، في الواقع، قل ما يمكن أن يكون الآخرون له. هذا هو السبب في أن درجة عالية من الذكاء تميل إلى جعل الإنسان غير اجتماعي. صحيح، إذا كان يمكن تعويض جودة العقل بالكمية، فقد يكون من المفيد العيش حتى في العالم الكبير؛ ولكن للأسف، مائة أحمق معًا لن يصنعوا رجلًا حكيمًا واحدًا.

ولكن الفرد الذي يقف في الطرف الآخر من السلم لا يكاد يكون خاليًا من آلام الحاجة حتى يسعى للحصول على الترفيه والمجتمع بأي ثمن، متخذًا أول شخص يقابله، متجنبًا نفسه قدر الإمكان. لأنه في العزلة، حيث يُلقى كل شخص على موارده الخاصة، يظهر ما لدى الإنسان في نفسه؛ الأحمق في الملابس الفاخرة يئن تحت عبء شخصيته البائسة، عبء لا يمكنه التخلص منه أبدًا، بينما يملأ الرجل الموهوب الأماكن الخالية بأفكاره المحفزة. يعلن سينيكا أن الحماقة هي عبء على نفسها،— الحماقة أو الجهل يؤديان إلى الشعور بالملل أو الاستياء من الذات—،.قول صحيح جدًا، يمكن مقارنته بكلمات يسوع بن سيراخ، "حياة الأحمق أسوأ من الموت". وكقاعدة عامة، سيُلاحظ أن الإنسان اجتماعي بقدر ما هو فقير عقليًا وعامًا مبتذلًا . لأن اختيار الإنسان في هذا العالم لا يتجاوز كثيرًا العزلة من جهة والابتذال من جهة أخرى. يُقال إن أكثر الناس اجتماعية هم الزنوج؛ وهم في أسفل السلم في العقل. أتذكر أنني قرأت مرة في صحيفة فرنسية أن السود في أمريكا الشمالية، سواء كانوا أحرارًا أو مستعبدين، يحبون أن يغلقوا أنفسهم بأعداد كبيرة في أصغر مساحة، لأنهم لا يمكنهم الحصول على ما يكفي من صحبة بعضهم البعض.

يمكن اعتبار الدماغ نوعاً من الطفيليات على الكائن الحي، كأنه مستفيد يعيش مع الجسد. والفراغ، أي الوقت الذي يمتلكه الإنسان للاستمتاع بحرية بوعيه أو فرديته، هو ثمرة أو نتاج بقية الوجود، الذي يكون في الغالب مجرد عمل وجهد .ولكن ماذا ينتج فراغ معظم الناس؟ الملل والرتابة؛ إلا إذا كان مشغولاً بالمتعة الحسية أو الحماقة. يمكن رؤية قلة قيمة هذا الفراغ في الطريقة التي يُقضى بها: وكما يلاحظ أريوستو، كم هي بائسة ساعات الفراغ لدى الجهلة "ozio lungo d'uomini ! - ignoranti". الناس العاديون يفكرون فقط في كيفية قضاء وقتهم؛ أما الشخص الموهوب فيحاول استخدامه. السبب في أن الأشخاص ذوي الذكاء المحدود يميلون إلى الشعور بالملل هو أن ذكاءهم ليس أكثر من الوسيلة التي يتم بها تفعيل قوة الإرادة: وعندما لا يكون هناك شيء محدد لتحفيز الإرادة، تستريح، ويأخذ ذكاؤهم

إجازة، لأنه، مثل الإرادة، يحتاج إلى شيء خارجي ليتم تفعيله. النتيجة هي ركود رهيب لأي قوة يمتلكها الإنسان - بكلمة واحدة، الملل. لمواجهة هذا الشعور البائس، يلجأ الناس إلى التفاهات التي تُسعدهم للحظة التي ينشغلون بها، على أمل تحفيز الإرادة لإثارتها للعمل، وبالتالي تحفيز الذكاء؛ لأن الأخير هو الذي يجب أن يحقق هذه الدوافع للإرادة. مقارنة بالدوافع الحقيقية والطبيعية، هذه الدوافع ليست سوى نقود ورقية مقارنة بالعملة المعدنية؛ لأن قيمتها تعسفية فقط - ألعاب الورق وما شابهها، التي اخترعت لهذا الغرض بالذات. وإذا لم يكن هناك شيء آخر يمكن القيام به، فإن الشخص سيقوم بتدوير إبهامه أو النقر بإيقاع شيطاني؛ أو قد يكون السيجار بديلاً مرحباً به لممارسة عقله. ومن هنا، في جميع البلدان، يكون النشاط الرئيسي للمجتمع هو لعب الورق، وهو مقياس لقيمته، وعلامة خارجية على إفلاسه الفكري. لأن الناس ليس لديهم أفكار يتعاملون بها، يتعاملون بالورق، ويحاولون الفوز بأموال بعضهم البعض. يا لهم من حمقى !لكنني لا أرغب في أن أكون غير عادل؛ لذا دعني ألاحظ أنه يمكن بالتأكيد القول دفاعاً عن لعب الورق أنه إعداد للعالم وللحياة العملية، لأن المرء يتعلم من خلاله كيفية الاستفادة بذكاء من الظروف العارضة ولكن غير القابلة للتغيير (البطاقات، في هذه الحالة)، والحصول على أكبر قدر ممكن منها : وللقيام بذلك يجب أن يتعلم الشخص قليلاً من التظاهر، وكيفية إظهار وجه جيد في موقف سيء. ولكن، من ناحية أخرى، هذا هو بالضبط السبب في أن لعب الورق مفسد للغاية، لأن الهدف كله منه هو استخدام كل أنواع الحيل والمكائد للفوز بما يخص الآخر. وهذه العادة، التي تُكتسب على طاولة اللعب، تتجذر وتشق طريقها إلى الحياة العملية؛ وفي شؤون الحياة اليومية، يبدأ الشخص تدريجياً في اعتبار "ملكي" و"ملكك" بنفس الطريقة التي يعتبر بها البطاقات، ويعتبر أنه يمكنه استخدام كل المزايا التي يمتلكها إلى أقصى حد، طالما أنه لا يقع تحت طائلة القانون. أمثلة على ما أعنيه تحدث يومياً في الحياة التجارية .بما أن الفراغ هو زهرة، أو بالأحرى ثمرة، الوجود، لأنه يضع الإنسان في حيازة نفسه، فإن أولئك الذين يمتلكون شيئاً حقيقياً في أنفسهم هم سعداء بالفعل. ولكن ماذا تحصل من فراغ معظم الناس؟ - مجرد

شخص عديم الفائدة، يشعر بالملل الشديد ويشكل عبئاً على نفسه. لذلك، دعونا نفرح، أيها الإخوة الأعزاء، لأننا لسنا أبناء الجارية، بل أبناء الحرة.

ملاحظة المترجم. :لعب الورق بهذا القدر أصبح بلا شك شيئاً من الماضي، على الأقل بين شعوب شمال أوروبا. الموضة الحالية تميل أكثر إلى الاهتمام بالفن أو الأدب بشكل هاوٍ.

علاوة على ذلك، كما أن الأرض التي تحتاج إلى واردات قليلة أو لا تحتاج إليها على الإطلاق هي الأفضل حالاً، فإن أسعد إنسان هو الذي يمتلك ثروة داخلية كافية، ويحتاج إلى القليل أو لا شيء من الخارج للحفاظ على نفسه، لأن الواردات أشياء مكلفة، تكشف عن الاعتماد، وتستتبع الخطر، وتسبب المتاعب، وعندما يُقال كل شيء، تكون بديلاً ضعيفاً عن الإنتاج المحلي. لا ينبغي لأي إنسان أن يتوقع الكثير من الآخرين، أو بشكل عام، من العالم الخارجي. ما يمكن أن يكونه إنسان لآخر ليس كثيراً: في النهاية يقف كل شخص بمفرده، والأمر المهم هو من هو الذي يقف بمفرده. هنا، إذن، تطبيق آخر للحقيقة العامة التي يعترف بها غوته في "الشعر والحقيقة" (الكتاب الثالث)، أن الإنسان في كل شيء يجب أن يعتمد في النهاية على نفسه؛ أو كما يقول غولدسميث في "المسافر:"

لا يزال لنا في كل مكان مخصص سعادتنا نصنعها أو نجدها.

نفسه هو مصدر أفضل وأعظم ما يمكن أن يكونه الإنسان أو يحققه. كلما كان الأمر كذلك - كلما وجد الإنسان مصادر سعادته في نفسه - كان أكثر سعادة .لذلك، من الحقيقة الكبيرة أن أرسطو{1} يقول: أن تكون سعيداً يعني أن تكون مكتفياً ذاتياً. لأن جميع مصادر السعادة الأخرى بطبيعتها غير مؤكدة، غير مستقرة، عابرة، لعبة الحظ؛ وبالتالي حتى في ظل أكثر الظروف ملاءمة يمكن أن تُستنفد بسهولة؛ لا، هذا أمر لا مفر منه، لأنها ليست دائماً في متناول اليد. وفي الشيخوخة يجب أن تجف هذه

المصادر للسعادة بالضرورة: الحب يتركنا حينها، والذكاء، والرغبة في السفر، والبهجة في الخيول، والقدرة على التفاعل الاجتماعي؛ الأصدقاء والأقارب أيضاً يؤخذون منا بالموت. ثم أكثر من أي وقت مضى، يعتمد الأمر على ما يمتلكه الإنسان في نفسه؛ لأن هذا سيبقى معه أطول فترة؛ وفي أي فترة من الحياة هو المصدر الوحيد الحقيقي والدائم للسعادة. لا يوجد الكثير للحصول عليه في أي مكان في العالم. إنه مليء بالبؤس والألم؛ وإذا نجا الإنسان من هذه، فإن الملل ينتظره في كل زاوية. لا، أكثر من ذلك؛ الشر هو الذي يسود عادة، والحمق هو الذي يصدر أكبر ضجيج. القدر قاسٍ، والبشرية بائسة. في مثل هذا العالم، الإنسان الغني في نفسه يشبه غرفة مشرقة ودافئة وسعيدة في عيد الميلاد، بينما في الخارج الصقيع والثلج في ليلة ديسمبر. لذلك، بلا شك، فإن أسعد مصير على الأرض هو أن يكون للإنسان هبة نادرة من الفردية الغنية، وخاصة أن يكون لديه موهبة جيدة من الذكاء؛ هذا هو أسعد مصير، على الرغم من أنه قد لا يكون، بعد كل شيء، مصيراً براقاً جداً.

كانت هناك حكمة عظيمة في تلك الملاحظة التي أدلت بها الملكة كريستينا ملكة السويد في عامها التاسع عشر عن ديكارت، الذي عاش حينها لمدة عشرين عامًا في عزلة تامة في هولندا، وكان معروفًا لها فقط من خلال مقال واحد" :السيد ديكارت"، قالت، "هو أسعد الرجال، وحالته تبدو لي جديرة بالحسد}".1 {بالطبع، كما كان الحال مع ديكارت، يجب أن تكون الظروف الخارجية مواتية بما يكفي للسماح للإنسان بأن يكون سيد حياته وسعادته؛ أو كما نقرأ في سفر الجامعة{2}—"الحكمة جيدة مع الميراث، ونافعة للذين يرون الشمس." الرجل الذي منحه الطبيعة والقدر نعمة الحكمة، سيكون أكثر حرصًا واهتمامًا للحفاظ على ينابيع السعادة التي يمتلكها في نفسه؛ ولهذا، فإن الاستقلال والفراغ ضروريان. للحصول عليهما، سيكون مستعدًا لتقليل رغباته وتوفير موارده، كلما كان ذلك أكثر لأنه ليس، مثل الآخرين، مقيدًا بالعالم الخارجي من أجل متعه .لذلك لن ينخدع بتوقعات المنصب، أو المال، أو فضل وتصفيق زملائه، فيتخلى عن نفسه ليتوافق مع الرغبات المنخفضة والأذواق

العامة؛ لا، في مثل هذه الحالة سيتبع النصيحة التي يقدمها هوراس في رسالته إلى ميسيناس

“لا أمدح نوم العامة، المشبع بالدواجن، ولا أستبدل أوقات الفراغ بأغنى ثروات العرب”. إنه لغباء كبير أن يضحي الإنسان بجوهره الداخلي من أجل المظاهر الخارجية، أن يعطي كل أو معظم هدوئه وفراغه واستقلاله من أجل البهاء، والرتب، والألقاب، والشرف. هذا ما فعله غوته. حظي الجيد قادني في الاتجاه الآخر تمامًا.

الحقيقة التي أصر عليها هنا، وهي أن المصدر الرئيسي للسعادة البشرية هو داخلي، تؤكدها تلك الملاحظة الدقيقة لأرسطو في “الأخلاق النيقوماخية”{1} أن كل متعة تفترض نوعًا من النشاط، وتطبيق نوع من القوة، بدونها لا يمكن أن توجد. العقيدة الأرسطية، التي تقول إن سعادة الإنسان تكمن في الممارسة الحرة لأعلى قدراته، تُعلن أيضًا بواسطة ستوبايوس في عرضه للفلسفة المشائية{2}: السعادة، كما يقول، تعني النشاط القوي والناجح في جميع مساعيك؛ ويشرح أن القوة} اليونانية : {aretaeتعني الإتقان في أي شيء، مهما كان. الآن، الغرض الأصلي من تلك القوى التي منحتها الطبيعة للإنسان هو تمكينه من النضال ضد الصعوبات التي تحيط به من جميع الجهات. ولكن إذا انتهى هذا النضال، تصبح قواه غير المستخدمة عبئًا عليه؛ ويجب عليه أن يبدأ في العمل واللعب بها،—لاستخدامها، أعني، دون أي غرض على الإطلاق، سوى تجنب المصدر الآخر للمعاناة البشرية، الملل، الذي يتعرض له فورًا. إن الطبقات العليا، الناس الأثرياء، هم أكبر ضحايا الملل. وصف لوكريتيوس منذ زمن طويل حالتهم البائسة، ويمكن التعرف على صحة وصفه حتى اليوم، في حياة كل عاصمة كبيرة—حيث نادرًا ما يكون الرجل الغني في قاعاته الخاصة، لأنه يشعر بالملل من التواجد هناك، ومع ذلك يعود إليها، لأنه ليس أفضل حالًا في الخارج؛—أو يسرع إلى منزله في الريف، كما لو كان في حالة حريق؛ وما إن يصل هناك،

حتى يشعر بالملل مرة أخرى، ويسعى لنسيان كل شيء في النوم، أو يسرع بالعودة إلى المدينة مرة أخرى.

في شبابهم، كان لدى هؤلاء الأشخاص فائض من الطاقة العضلية والحيوية، وهي قوى لا يمكنها الحفاظ على كامل قوتها لفترة طويلة، على عكس قوى العقل. وفي سنواتهم اللاحقة، إما أنهم لا يمتلكون أي قوى عقلية على الإطلاق، أو لا يمكنهم تطوير أي منها بسبب نقص العمل الذي يمكن أن يبرزها، مما يجعلهم في حالة بائسة. ومع ذلك، فإنهم لا يزالون يمتلكون الإرادة، لأنها القوة الوحيدة التي لا تنضب؛ ويحاولون تحفيز إرادتهم من خلال الإثارة العاطفية، مثل ألعاب الحظ برهانات عالية، والتي تعتبر بلا شك شكلاً من أشكال الرذيلة الأكثر انحطاطاً. ويمكن القول بشكل عام أنه إذا وجد الإنسان نفسه بلا عمل، فإنه سيختار بالتأكيد نوعاً من التسلية التي تتناسب مع نوع القوة التي يتفوق فيها، سواء كانت البولينج، أو الشطرنج، أو الصيد، أو الرسم، أو سباق الخيل، أو الموسيقى، أو البطاقات، أو الشعر، أو علم الأنساب، أو الفلسفة، أو أي اهتمام آخر هاوٍ. يمكننا تصنيف هذه الاهتمامات بشكل منهجي، من خلال تقليلها إلى تعبيرات عن القوى الأساسية الثلاث، وهي العوامل التي تشكل البنية الفسيولوجية للإنسان؛ وأيضاً من خلال النظر في هذه القوى بحد ذاتها، وبمعزل عن أي أهداف محددة قد تخدمها، وببساطة كوسائل لتوفير ثلاثة مصادر محتملة للمتعة، والتي سيختار منها كل شخص ما يناسبه، وفقاً لتفوقه في اتجاه أو آخر.

أولاً، تأتي متعة الطاقة الحيوية، من الطعام، والشراب، والهضم، والراحة، والنوم؛ وهناك أجزاء من العالم يمكن القول بأن هذه هي المتع الوطنية المميزة لها. ثانياً، هناك متعة الطاقة العضلية، مثل المشي، والجري، والمصارعة، والرقص، والمبارزة، وركوب الخيل، والمشاريع الرياضية المماثلة، التي تأخذ أحياناً شكل الرياضة، وأحياناً شكل الحياة العسكرية والحرب الحقيقية. ثالثاً، هناك متعة الحساسية، مثل الملاحظة، والتفكير، والشعور، أو التذوق للشعر أو الثقافة، والموسيقى، والتعلم،

والقراءة، والتأمل، والاختراع، والفلسفة وما شابه ذلك. فيما يتعلق بالقيمة، والأهمية النسبية، ومدة كل نوع من هذه المتع، يمكن قول الكثير، والذي أتركه للقارئ ليكمله .ولكن الجميع سيرى أن القوة النبيلة التي يتم تفعيلها، ستعطي متعة أكبر؛ لأن المتعة دائماً ما تتضمن استخدام قوى الشخص الخاصة، والسعادة تتكون من تكرار المتعة بشكل متكرر. لا أحد سينكر أن متعة الحساسية تحتل مكانة أعلى من أي من النوعين الأساسيين الآخرين؛ التي توجد بدرجة متساوية، بل أكبر في الحيوانات؛ إن هذه الكمية الزائدة من الحساسية هي التي تميز الإنسان عن الحيوانات الأخرى. الآن، قوى عقلنا هي أشكال من الحساسية، وبالتالي فإن الكمية الزائدة منها تجعلنا قادرين على ذلك النوع من المتعة الذي يتعلق بالعقل، ما يسمى بالمتعة الفكرية؛ وكلما زادت الحساسية، زادت المتعة.

تُظهر الطبيعة تقدماً مستمراً، بدءاً من النشاط الميكانيكي والكيميائي للعالم غير العضوي، مروراً بالنباتات التي تستمتع بوجودها بشكل خافت، وصولاً إلى العالم الحيواني حيث تبدأ الذكاء والوعي، في البداية بشكل ضعيف، وبعد العديد من المراحل الوسيطة تصل إلى تطورها الكبير الأخير في الإنسان، الذي يُعتبر عقله هو قمة جهود الطبيعة، الهدف النهائي لكل مساعيها، والأكثر كمالاً وصعوبة من بين جميع أعمالها. وحتى ضمن نطاق العقل البشري، هناك العديد من الفروقات الملحوظة في الدرجات، ونادراً ما يصل العقل إلى أعلى نقطة له، الذكاء بمعناه الحقيقي، الذي يُعتبر في هذا المعنى الضيق والدقيق، هو أرقى منتجات الطبيعة، وبالتالي أندر وأثمن شيء يمكن أن يتباهى به العالم. أعلى منتج للطبيعة هو أوضح درجات الوعي، حيث يعكس العالم نفسه بشكل أكثر وضوحاً وكمالاً من أي مكان آخر. الشخص الذي يتمتع بهذا النوع من الذكاء يمتلك ما هو أرقى وأفضل على الأرض؛ وبالتالي، لديه مصدر للمتعة مقارنةً بجميع الآخرين. من محيطه، لا يطلب سوى وقت الفراغ للاستمتاع بحرية بما لديه، وقتاً، كما لو كان، لصقل ماسة. جميع المتع الأخرى التي ليست من العقل هي من نوع أدنى؛ لأنها جميعها، بلا استثناء،

حركات إرادة—رغبات، آمال، مخاوف وطموحات، بغض النظر عن اتجاهها: يتم دائماً إشباعها على حساب الألم، وفي حالة الطموح، غالباً ما تكون مصحوبة ببعض الوهم. مع المتعة العقلية، من ناحية أخرى، تصبح الحقيقة أكثر وضوحاً. في مجال الذكاء، لا قوة للألم. المعرفة هي كل شيء. علاوة على ذلك، المتع العقلية متاحة بالكامل وفقط من خلال الوسيط العقلي، ومحدودة بقدراته. لأن كل الذكاء الموجود في العالم لا فائدة منه لمن لا يمتلكه. ومع ذلك، فإن هذه الميزة تصاحبها عيب كبير؛ لأن الطبيعة بأكملها تُظهر أنه مع نمو الذكاء يأتي زيادة في القدرة على الألم، وفقط مع أعلى درجة من الذكاء يصل الألم إلى ذروته.

الشخص العادي يأخذ اهتماماً حياً بأي شيء فقط بقدر ما يثير إرادته، أي بمعنى آخر، يكون له مصلحة شخصية فيه. لكن الإثارة المستمرة للإرادة ليست أبداً خيراً خالصاً، على أقل تقدير؛ بمعنى آخر، تتضمن الألم. لعب الورق، تلك الوظيفة العالمية لـ"المجتمع الراقي" في كل مكان، هو وسيلة لتوفير هذا النوع من الإثارة، وذلك أيضاً من خلال مصالح صغيرة جداً بحيث تنتج ألماً طفيفاً ومؤقتاً، بدلاً من ألم حقيقي ودائم. لعب الورق هو، في الواقع، مجرد دغدغة للإرادة.

الابتذال، في جوهره، هو نوع من الوعي الذي تهيمن فيه الإرادة تماماً على العقل، حيث لا يقوم الأخير بأكثر من خدمة سيده، الإرادة. لذلك، عندما لا تقدم الإرادة أي مطالب، ولا توفر أي دوافع، قوية كانت أم ضعيفة، يفقد العقل تماماً قوته، والنتيجة هي فراغ كامل في العقل. الآن، الإرادة بدون عقل هي أكثر الأشياء ابتذالاً وشيوعاً في العالم، يمتلكها كل أحمق، الذي يُظهر في إشباع شهواته المادة التي يتكون منها. هذه هي الحالة العقلية التي تُسمى الابتذال، حيث تكون العناصر النشطة الوحيدة هي أعضاء الحواس، وتلك الكمية الصغيرة من العقل الضرورية لفهم بيانات الحواس. وبناءً على ذلك، يكون الشخص المبتذل مفتوحاً باستمرار لجميع أنواع الانطباعات، ويدرك فوراً كل الأشياء التافهة التي تحدث في بيئته: أضعف همسة، وأتفه الظروف،

تكون كافية لجذب انتباهه؛ إنه تماماً مثل الحيوان. تكشف حالة هذا الشخص العقلية عن نفسها في وجهه، وفي مظهره الخارجي بالكامل؛ ومن هنا يأتي ذلك المظهر المبتذل والمثير للاشمئزاز، الذي يكون أكثر إزعاجاً، إذا كانت إرادته - العامل الوحيد في وعيه - دنيئة، أنانية، وسيئة تماماً.

من ناحية أخرى، فإن الشخص ذو العقل القوي قادر على الاهتمام الحي بالأشياء من خلال المعرفة البحتة، دون أي مزيج من الإرادة؛ بل إن مثل هذا الاهتمام ضروري له. يضعه في مجال حيث يكون الألم غريباً، في هواء أسمى، حيث تعيش الآلهة بسلام.

تأمل هاتين الصورتين: حياة الجماهير، سجل طويل وممل من الكفاح والجهد المكرس بالكامل للمصالح الصغيرة للرفاهية الشخصية، للبؤس بجميع أشكاله، حياة محاطة بالملل الذي لا يطاق بمجرد تحقيق تلك الأهداف ويجد الإنسان نفسه مجبراً على العودة إلى ذاته، حيث لا يمكنه أن يتحرك مرة أخرى إلا بنار الشغف الجامحة. وعلى الجانب الآخر، لديك رجل يتمتع بدرجة عالية من القوة العقلية، يعيش حياة غنية بالتفكير ومليئة بالحياة والمعنى، مشغول بأشياء جديرة بالاهتمام ومثيرة بمجرد أن يكون حراً ليكرس نفسه لها، يحمل في داخله مصدراً لأرقى أنواع المتعة. ما يحتاجه من محفزات خارجية يأتي من أعمال الطبيعة، ومن تأمل الشؤون الإنسانية وإنجازات العظماء من جميع العصور والبلدان، التي يقدرها رجل من هذا النوع وحده، كونه الوحيد الذي يمكنه فهمها والشعور بها تماماً. وهكذا، فإن هؤلاء العظماء قد عاشوا حقاً من أجله وحده؛ إنه هو الذي يستجيبون له؛ أما الباقون فهم مجرد مستمعين عرضيين لا يفهمونهم أو أتباعهم إلا جزئياً. بالطبع، هذه السمة للرجل المثقف تعني أنه لديه حاجة إضافية عن الآخرين، وهي الحاجة إلى القراءة، والملاحظة، والدراسة، والتأمل، والممارسة، الحاجة، باختصار، إلى وقت الفراغ غير المضطرب. لأن، كما قال فولتير بحق، لا توجد متع حقيقية بدون احتياجات حقيقية؛ والحاجة إليها هي السبب في أن مثل هذا الرجل يمكنه الوصول إلى متع محجوبة عن

الآخرين، مثل جماليات الطبيعة والفن والأدب المتنوعة. تكديس هذه المتع حول أشخاص لا يريدونها ولا يقدرونها، يشبه توقع أن يقع الشيب في الحب. الرجل الذي يتمتع بهذا الامتياز يعيش حياتين، حياة شخصية وحياة عقلية؛ والأخيرة تصبح تدريجياً هي الحياة الحقيقية، والأولى مجرد وسيلة لها. الآخرون يجعلون هذه الحياة السطحية والفارغة والمضطربة غاية في حد ذاتها. بالنسبة لحياة العقل، سيعطي هذا الرجل الأفضلية على جميع مشاغله الأخرى: من خلال النمو المستمر للبصيرة والمعرفة، ستكتسب هذه الحياة العقلية، مثل عمل فني يتشكل ببطء، اتساقاً، وكثافة دائمة، ووحدة تصبح أكثر اكتمالاً؛ مقارنةً بها، تبدو الحياة المكرسة لتحقيق الراحة الشخصية، التي قد تتسع بالفعل، ولكن لا يمكن أن تتعمق، ضعيفة؛ ومع ذلك، كما قلت، يجعل الناس هذا النوع الأدنى من الوجود غاية في حد ذاته.

الحياة اليومية العادية، طالما أنها لا تحركها الشغف، تكون مملة وبلا طعم؛ وإذا حركتها الشغف، فإنها سرعان ما تصبح مؤلمة. السعداء فقط هم الذين منحتهم الطبيعة فائضاً من العقل، شيئاً يتجاوز ما هو ضروري فقط لتنفيذ أوامر إرادتهم؛ لأنه يمكنهم من عيش حياة عقلية أيضاً، حياة خالية من الألم ومليئة بالاهتمامات الحية. الفراغ البسيط، أي العقل غير المشغول في خدمة الإرادة، ليس كافياً بحد ذاته: يجب أن يكون هناك فائض حقيقي من القوة، محرر من خدمة الإرادة ومكرس لخدمة العقل؛ لأن، كما يقول سينيكا، "الفراغ بدون أدب هو موت وقبر حي". اعتماداً على مقدار الفائض، ستكون هناك تطورات لا حصر لها في هذه الحياة الثانية، حياة العقل؛ قد تكون مجرد جمع وتصنيف الحشرات، الطيور، المعادن، العملات، أو أعلى إنجازات الشعر والفلسفة. حياة العقل ليست فقط حماية من الملل؛ بل إنها تقي أيضاً من الآثار الضارة للملل؛ تبعدنا عن الصحبة السيئة، وعن العديد من المخاطر، والمصائب، والخسائر، والإسرافات التي يواجهها الشخص الذي يضع سعادته بالكامل في العالم الخارجي .فلسفتي، على سبيل المثال، لم تجلب لي فلساً واحداً؛ لكنها وفرت لي الكثير من النفقات.

الشخص العادي يضع سعادة حياته في الأشياء الخارجية عنه، في الممتلكات، والرتبة، والزوجة والأطفال، والأصدقاء، والمجتمع، وما إلى ذلك، بحيث عندما يفقدها أو يجدها مخيبة للآمال، يتم تدمير أساس سعادته. بمعنى آخر، مركز ثقله ليس في نفسه؛ إنه يتغير باستمرار مع كل رغبة ونزوة. إذا كان رجلاً ثرياً، فسيكون مركز ثقله يوماً ما في منزله الريفي، وفي يوم آخر في شراء الخيول، أو استضافة الأصدقاء، أو السفر، حياة، باختصار، من الرفاهية العامة، والسبب هو أنه يبحث عن متعته في الأشياء الخارجية عنه. مثل شخص فقد صحته وقوته، يحاول استعادتها باستخدام الجيلي والأدوية، بدلاً من تطوير قوته الحيوية الخاصة، المصدر الحقيقي لما فقده. قبل الانتقال إلى النقيض، دعونا نقارن هذا النوع الشائع بالشخص الذي يأتي في منتصف الطريق بين الاثنين، الموهوب، ربما، ليس بقوى عقلية متميزة، ولكن بشيء أكثر قليلاً من العقل العادي. سيأخذ اهتماماً هاوياً بالفن، أو يكرس انتباهه لبعض فروع العلم—علم النبات، على سبيل المثال، أو الفيزياء، علم الفلك، التاريخ، ويجد الكثير من المتعة في هذه الدراسات، ويسلي نفسه بها عندما تستنفد القوى الخارجية للسعادة أو تفشل في إرضائه. يمكن القول عن شخص مثل هذا أن مركز ثقله جزئياً في نفسه. لكن الاهتمام الهاوي بالفن يختلف كثيراً عن النشاط الإبداعي؛ والسعي الهاوي للعلم يميل إلى أن يكون سطحياً ولا يخترق جوهر الموضوع. لا يمكن للإنسان أن يحدد نفسه تماماً مع هذه المساعي، أو أن يكون وجوده بالكامل مشغولاً ومغموراً بها لدرجة أنه يفقد كل اهتمام بكل شيء آخر .فقط القوة العقلية العليا، ما نسميه العبقرية، هي التي تصل إلى هذه الدرجة من الكثافة، وتجعل كل الوقت والوجود موضوعها، وتسعى للتعبير عن تصورها الفريد للعالم، سواء كانت تتأمل الحياة كموضوع للشعر أو الفلسفة. ومن ثم، فإن الانشغال غير المضطرب بنفسه، بأفكاره وأعماله الخاصة، هو أمر ضروري للغاية لمثل هذا الشخص؛ العزلة مرحب بها، والفراغ هو الخير الأسمى، وكل شيء آخر غير ضروري، بل حتى عبء.

هذا هو النوع الوحيد من الرجال الذي يمكن القول إن مركز ثقله بالكامل في نفسه؛ مما يفسر لماذا هؤلاء الأشخاص - وهم نادرون جداً - بغض النظر عن مدى روعة شخصياتهم، لا يظهرون ذلك الاهتمام الدافئ وغير المحدود بالأصدقاء والعائلة والمجتمع بشكل عام، الذي يكون الآخرون غالباً قادرين عليه؛ لأنهم إذا كانوا يمتلكون أنفسهم فقط، فإنهم لا يشعرون بالحزن الشديد لفقدان كل شيء آخر. هذا يمنح شخصياتهم عزلة، وهي أكثر فعالية لأن الآخرين لا يرضونهم تماماً، كونهم في المجمل من طبيعة مختلفة: بل وأكثر من ذلك، لأن هذا الاختلاف يفرض نفسه باستمرار على ملاحظاتهم، فإنهم يعتادون على التحرك بين البشر ككائنات غريبة، وعند التفكير في الإنسانية بشكل عام، يقولون "هم "بدلاً من "نحن."

لذا، نستنتج أن الرجل الذي وهبته الطبيعة ثروة فكرية هو الأسعد؛ فالحقيقة هي أن الأمور الذاتية تهمنا أكثر من الأمور الموضوعية؛ لأن الأخيرة، مهما كانت، لا يمكن أن تعمل إلا بشكل غير مباشر، وثانوي، ومن خلال الوسيط الأول - وهي حقيقة عبّر عنها لوسيان بشكل رائع:

"الثروة الحقيقية الوحيدة هي ثروة الروح، لأن مع كل الثروات الأخرى يأتي بلاء أكبر منها".

الرجل ذو الثروة الداخلية لا يريد شيئاً من الخارج سوى الهدية السلبية للراحة غير المضطربة، لتطوير وتنضيج قدراته الفكرية، أي للاستمتاع بثروته؛ باختصار، يريد الإذن بأن يكون نفسه، طوال حياته، كل يوم وكل ساعة. إذا كان مقدراً له أن يترك بصمة على عقول جيله، فإن لديه مقياساً واحداً للسعادة أو التعاسة - النجاح أو الفشل في إتقان قدراته وإكمال عمله. كل شيء آخر ذو أهمية صغيرة. وفقاً لذلك، أعظم العقول في كل العصور قد وضعت أعلى قيمة على الراحة غير المضطربة، باعتبارها تساوي تماماً قيمة الرجل نفسه. السعادة تبدو أنها تكمن في الراحة، كما يقول أرسطو؛ وديوقينيس لايرتيوس يذكر أن سقراط أشاد بالراحة كأجمل

الممتلكات. لذا، في "الأخلاق النيقوماخية"، يستنتج أرسطو أن الحياة المكرسة للفلسفة هي الأسعد؛ أو كما يقول في "السياسة"، فإن الممارسة الحرة لأي قوة، مهما كانت، هي السعادة. وهذا يتماشى مع ما يقوله غوته في "فيلهلم مايستر": الرجل الذي يولد بموهبة مخصصة للاستخدام، يجد سعادته الكبرى في استخدامها.

لكن التمتع بالراحة غير المضطربة بعيد كل البعد عن أن يكون نصيب الجميع؛ بل هو شيء غريب عن الطبيعة البشرية، لأن مصير الإنسان العادي هو قضاء حياته في تأمين ما هو ضروري لبقاء نفسه وأسرته؛ فهو ابن الكفاح والحاجة، وليس ذكاءً حراً. لذلك، عادة ما يشعر الناس بالملل بسرعة من الراحة غير المضطربة، وتصبح عبئاً إذا لم تكن هناك أهداف وهمية ومفروضة لملء وقت الفراغ، مثل اللعب والتسلية والهوايات من كل نوع. لهذا السبب بالذات، فإنها مليئة بالمخاطر المحتملة، والمقولة اللاتينية "difficilis in otio quies" صحيحة - من الصعب البقاء هادئاً إذا لم يكن لديك ما تفعله. من ناحية أخرى، فإن مستوى الذكاء الذي يتجاوز العادي بكثير هو غير طبيعي بقدر ما هو غير مألوف. ولكن إذا كان موجوداً، وكان الشخص الموهوب به يريد أن يكون سعيداً، فإنه سيحتاج بالضبط إلى تلك الراحة غير المضطربة التي يجدها الآخرون عبئاً أو ضارة؛ لأنه بدونها يكون مثل الحصان المجنح في العربة، وبالتالي غير سعيد. إذا تزامنت هاتان الحالتان غير الطبيعيتين، الخارجية والداخلية، الراحة غير المضطربة والذكاء العظيم، في نفس الشخص، فإنها تكون قطعة كبيرة من الحظ؛ وإذا كانت الأقدار مواتية إلى هذا الحد، يمكن للإنسان أن يعيش الحياة العليا، الحياة المحمية من مصدرين متضادين من معاناة الإنسان، الألم والملل، من الكفاح المؤلم من أجل الوجود، وعدم القدرة على تحمل الراحة (التي هي الوجود الحر نفسه) - الشرور التي يمكن الهروب منها فقط عن طريق تحييد بعضها البعض.

ولكن هناك شيء يمكن قوله في معارضة هذا الرأي. الهبات الفكرية العظيمة تعني نشاطاً عصبياً بامتياز في طبيعته، وبالتالي درجة عالية جداً من الحساسية للألم بكل

أشكاله. علاوة على ذلك، فإن هذه الهبات تعني مزاجاً مكثفاً، وأفكاراً أكبر وأكثر حيوية، والتي، كرفيق لا ينفصل عن القوة الفكرية العظيمة، تفرض على صاحبها شدة مماثلة من العواطف، مما يجعلها أكثر عنفاً بشكل لا يقارن من تلك التي يعاني منها الإنسان العادي. الآن، هناك أشياء أكثر في العالم تسبب الألم أكثر من المتعة. مرة أخرى، يميل الذكاء الكبير إلى إبعاد الشخص الذي يمتلكه عن الآخرين وأفعالهم؛ فكلما كان لدى الإنسان أكثر في نفسه، قل ما سيجده في الآخرين؛ والمائة شيء التي يستمتعون بها، سيجدها سطحية وتافهة. هنا، إذن، ربما، مثال آخر على قانون التعويض الذي يجعل نفسه محسوساً في كل مكان. كم مرة يسمع المرء هذا القول، ويقال أيضاً، مع بعض المعقولية، أن الشخص ضيق الأفق هو في الأساس الأسعد، حتى لو كانت ثروته غير محمودة. لن أحاول استباق حكم القارئ في هذه النقطة؛ خاصة وأن سوفوكليس نفسه قد أعطى تعبيراً لرأيين متناقضين تماماً.

أود أن أشير، مع ذلك، إلى أن الرجل الذي ليس لديه احتياجات عقلية، لأن عقله ضيق ومحدود، هو، بالمعنى الدقيق للكلمة، ما يسمى بال"فيلستيني"—تعبير كان في البداية خاصاً باللغة الألمانية، نوع من المصطلحات العامية في الجامعات، ثم استخدم، بالقياس، بمعنى أعلى، رغم أنه لا يزال في معناه الأصلي، للدلالة على شخص ليس "ابن الميوزات". الفيلستيني هو ويبقى }اليونانية .{amousos anaer : أفضل أن أتخذ وجهة نظر أعلى، وأطبق مصطلح الفيلستيني على الأشخاص الذين ينشغلون دائماً بجدية بالواقعيات التي ليست بواقعيات؛ ولكن بما أن مثل هذا التعريف سيكون تعريفاً متعالياً، وبالتالي غير مفهوم بشكل عام، فإنه لن يكون في مكانه في هذا البحث، الذي يهدف إلى أن يكون شعبياً. يمكن توضيح التعريف الآخر بسهولة أكبر، حيث يشير، بشكل مرضٍ بما فيه الكفاية، إلى الطبيعة الأساسية لكل تلك الصفات التي تميز الفيلستيني. يُعرَّف بأنه رجل بلا احتياجات عقلية. من هذا يتبع، أولاً، فيما يتعلق بنفسه، أنه ليس لديه متع فكرية؛ لأنه، كما ذُكر سابقاً، لا توجد متع حقيقية بدون احتياجات حقيقية. حياة الفيلستيني لا تحركها رغبة في اكتساب

المعرفة والبصيرة من أجل ذاتها، أو لتجربة تلك المتعة الجمالية الحقيقية التي تشبهها إلى حد كبير. إذا كانت المتع من هذا النوع شائعة، ووجد الفيلستيني نفسه مضطراً للاهتمام بها، فإنه سيجبر نفسه على القيام بذلك، لكنه سيأخذ أقل قدر ممكن من الاهتمام بها. متعه الحقيقية الوحيدة هي من النوع الحسي، ويعتقد أن هذه تعوضه عن فقدان الآخرين. بالنسبة له، المحار والشامبانيا هما قمة الوجود؛ هدف حياته هو تأمين ما سيساهم في رفاهيته الجسدية، وهو بالفعل في طريق سعيد إذا تسبب له هذا في بعض المتاعب. إذا كانت رفاهيات الحياة مكدسة عليه، فإنه سيشعر بالملل حتماً، وضد الملل لديه العديد من العلاجات الوهمية، الكرات، المسارح، الحفلات، البطاقات، القمار، الخيول، النساء، الشرب، السفر وما إلى ذلك؛ كل هذه لا يمكن أن تحمي الإنسان من الشعور بالملل، لأنه حيث لا توجد احتياجات عقلية، لا توجد متع عقلية ممكنة. السمة المميزة للفيلستيني هي نوع من الجدية الباهتة والجافة، تشبه تلك الموجودة في الحيوانات. لا شيء يرضيه حقاً، أو يثيره، أو يهمه، لأن المتعة الحسية تُستنفد بسرعة، ومجتمع الفيلستينيين يصبح عبئاً قريباً، وقد يشعر المرء حتى بالملل من لعب الورق. صحيح، تبقى متع الغرور، المتع التي يستمتع بها بطريقته الخاصة، إما بشعوره بالتفوق من حيث الثروة، أو الرتبة، أو النفوذ والقوة على الآخرين، الذين يدفعون له الاحترام؛ أو، على الأقل، بالتجول مع أولئك الذين لديهم فائض من هذه النعم، يتشمس في انعكاس بريقهم—ما يسميه الإنجليز "سنوب."

من الطبيعة الأساسية للفيلستيني يتبع، ثانياً، فيما يتعلق بالآخرين، أنه بما أنه لا يمتلك احتياجات عقلية، بل احتياجات جسدية فقط، فإنه سيبحث عن مجتمع يمكنه تلبية الأخيرة، وليس الأولى. آخر شيء سيبحث عنه في أصدقائه هو امتلاكهم لأي نوع من القدرات العقلية؛ بل إذا صادفها، فإنها ستثير نفوره وحتى كراهيته؛ ببساطة لأنه بالإضافة إلى شعور غير مريح بالدونية، يشعر في قلبه بنوع من الحسد الباهت، الذي يجب إخفاؤه بعناية حتى عن نفسه. ومع ذلك، فإنه أحياناً ينمو ليصبح

شعوراً سرياً بالضغينة. ولكن مع كل ذلك، لن يخطر بباله أبداً أن يجعل أفكاره الخاصة عن القيمة تتماشى مع معيار هذه الصفات؛ سيستمر في تفضيل الرتبة والثروة، القوة والنفوذ، التي تبدو في عينيه أنها المزايا الحقيقية الوحيدة في العالم؛ ورغبته ستكون في التفوق فيها بنفسه .كل هذا هو نتيجة لكونه رجلاً بلا احتياجات عقلية. المصيبة الكبرى لجميع الفيلستينيين هي أنهم لا يهتمون بالأفكار، وأنهم، للهروب من الملل، في حاجة مستمرة إلى الواقعيات. ولكن الواقعيات إما غير مرضية أو خطيرة؛ عندما تفقد اهتمامها، تصبح مرهقة. ولكن العالم المثالي لا حدود له وهادئ،

شيء بعيد عن مجال حزننا.

ملاحظة- في هذه الملاحظات حول الصفات الشخصية التي تساهم في السعادة، كنت مهتماً بشكل رئيسي بالطبيعة الجسدية والعقلية للإنسان. للحصول على حساب عن التأثير المباشر والفوري للأخلاق على السعادة، دعني أشير إلى مقالي الفائز بالجائزة حول "أساسيات الأخلاق "

الفصل الثالث : الملكية، أو ما يمتلكه الإنسان.

يقسم إبيقور احتياجات البشر إلى ثلاث فئات، وهذه التقسيمات التي وضعها هذا الأستاذ العظيم للسعادة صحيحة وجميلة. أولاً تأتي الاحتياجات الطبيعية والضرورية، مثل الطعام والملابس، التي عندما لا تُلبى تسبب الألم - وهي احتياجات يمكن تلبيتها بسهولة. ثانياً، هناك تلك الاحتياجات التي، رغم أنها طبيعية، ليست ضرورية، مثل إشباع بعض الحواس. يمكنني أن أضيف، مع ذلك، أن إبيقور لم يذكر في تقرير ديوجينس لايرتيوس أي الحواس يقصد؛ لذا فإن شرحي لعقيدته في هذا الصدد أكثر تحديداً ودقة من الأصل. هذه الاحتياجات أصعب قليلاً في تلبيتها. الفئة الثالثة تتكون من احتياجات ليست طبيعية ولا ضرورية، وهي الحاجة إلى الرفاهية والبذخ، العرض والبريق، التي لا تنتهي أبداً، ومن الصعب جداً تلبيتها

من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، تحديد الحدود التي يجب أن تفرضها العقلانية على الرغبة في الثروة؛ لأنه لا يوجد مقدار مطلق أو محدد من الثروة يمكن أن يرضي الإنسان. المقدار دائماً نسبي، أي بقدر ما يحافظ على التوازن بين ما يريده وما يحصل عليه؛ لأن قياس سعادة الإنسان فقط بما يحصل عليه، وليس أيضاً بما يتوقع الحصول عليه، هو أمر عديم الجدوى مثل محاولة التعبير عن كسر له بسط ولكن لا مقام له. الإنسان لا يشعر أبداً بفقدان الأشياء التي لم يخطر بباله أن يطلبها؛ فهو سعيد بدونها؛ بينما شخص آخر، قد يكون لديه مئة ضعف ما لديه، يشعر بالبؤس لأنه لم يحصل على الشيء الوحيد الذي يريده. في الواقع، هنا أيضاً، لكل إنسان أفقه الخاص، وسيطلب بقدر ما يعتقد أنه من الممكن له الحصول عليه. إذا كان هناك شيء داخل أفقه يبدو أنه يمكنه الاعتماد على الحصول عليه، فهو سعيد؛ ولكن إذا واجه صعوبات، فهو بائس. ما يقع خارج أفقه لا يؤثر عليه على الإطلاق. لذلك، فإن الممتلكات الهائلة للأغنياء لا تثير الفقراء، وعلى العكس، فإن الرجل الثري لا يجد عزاءً في كل ثروته لفشل آماله. يمكن القول إن الثروة مثل ماء البحر؛ كلما

شربت أكثر، زادت عطشك؛ وينطبق نفس الشيء على الشهرة. فقدان الثروة والازدهار يترك الإنسان، بمجرد أن تمر أولى آلام الحزن، في نفس الحالة المزاجية المعتادة كما كان من قبل؛ والسبب في ذلك هو أنه بمجرد أن تقلل الأقدار من مقدار ممتلكاته، يقوم هو فوراً بتقليل مقدار مطالبه. ولكن عندما تأتي المصيبة علينا، فإن تقليل مقدار مطالبنا هو ما يكون الأكثر إيلاماً؛ بمجرد أن نفعل ذلك، يصبح الألم أقل وأقل، ولا يُشعر به بعد ذلك؛ مثل جرح قديم شُفي. وعلى العكس، عندما تصيبنا قطعة من الحظ الجيد، ترتفع مطالبنا أعلى وأعلى، حيث لا يوجد شيء ينظمها؛ في هذا الشعور بالتوسع يكمن سرور الأمر. ولكنه لا يدوم أطول من العملية نفسها، وعندما يكتمل التوسع، يتوقف السرور؛ لقد اعتدنا على زيادة مطالبنا، وبالتالي أصبحنا غير مبالين بمقدار الثروة التي تلبيها.:

"إن أفكار الإنسان الذي يعيش على الأرض هي مثل اليوم الذي منحه إياه والد الآلهة والبشر—"أفكار الإنسان الذي يعيش على الأرض هي مثل اليوم الذي منحه إياه والد الآلهة والبشر. ينشأ الاستياء من السعي المستمر لزيادة مقدار مطالبنا، عندما نكون عاجزين عن زيادة المقدار الذي سيلبيها.

عندما نفكر في مدى احتياجات الجنس البشري، وكيف أن وجوده بالكامل يعتمد عليها، فلا عجب أن الثروة تُعتبر أكثر قيمة واحترامًا من أي شيء آخر في العالم؛ ولا ينبغي أن نتعجب من أن الربح يُعتبر الخير الوحيد في الحياة، وكل ما لا يؤدي إليه يتم تجاهله أو التخلص منه - الفلسفة، على سبيل المثال، من قبل أولئك الذين يدعونها. غالبًا ما يُلام الناس على رغبتهم في المال فوق كل شيء، وحبهم له أكثر من أي شيء آخر؛ ولكن من الطبيعي بل ومن الحتمي أن يحب الناس ما يمكنه، مثل بروتيوس الذي لا يكل، أن يتحول إلى أي شيء تتعلق به رغباتهم المتنوعة في أي لحظة. كل شيء آخر يمكنه إشباع رغبة واحدة فقط، حاجة واحدة: الطعام جيد فقط إذا كنت جائعًا؛ النبيذ، إذا كنت قادرًا على الاستمتاع به؛ الأدوية، إذا كنت مريضًا؛

الفراء لفصل الشتاء؛ الحب للشباب، وهكذا. كل هذه الأشياء جيدة نسبيًا، }اليونانية : agatha pros ti}. المال وحده هو الخير المطلق، لأنه ليس فقط إشباعًا ملموسًا لحاجة واحدة بعينها؛ بل هو إشباع مجرد لكل الحاجات.

إذا كان لدى الإنسان ثروة مستقلة، فيجب أن يعتبرها حصنًا ضد العديد من الشرور والمصائب التي قد يواجهها؛ ولا ينبغي أن ينظر إليها على أنها تمنحه الإذن للاستمتاع بما يمكنه من العالم، أو تجعله ملزمًا بإنفاقها بهذه الطريقة. الأشخاص الذين لم يولدوا بثروة، ولكنهم انتهوا بصنع ثروة كبيرة من خلال ممارسة أي مواهب يمتلكونها، غالبًا ما يعتقدون أن مواهبهم هي رأس مالهم، وأن المال الذي كسبوه هو مجرد فائدة عليه؛ لا يدخرون جزءًا من أرباحهم لتكوين رأس مال دائم، بل ينفقون أموالهم كما كسبوها. وبالتالي، غالبًا ما يسقطون في الفقر؛ تنخفض أرباحهم، أو تنتهي تمامًا، إما لأن موهبتهم استنفدت بسبب التقادم، كما يحدث غالبًا في حالة الفنون الجميلة؛ أو لأنها كانت صالحة فقط في ظل ظروف خاصة قد مرت الآن. لا يوجد ما يمنع أولئك الذين يعيشون على العمل اليدوي من التعامل مع أرباحهم بهذه الطريقة إذا أرادوا؛ لأن نوع مهارتهم ليس من المحتمل أن يختفي، أو إذا اختفى، يمكن استبداله بمهارة زملائهم العمال؛ علاوة على ذلك، فإن نوع العمل الذي يقومون به دائمًا مطلوب؛ لذلك ما يقوله المثل صحيح تمامًا، التجارة المفيدة هي منجم ذهب. ولكن مع الفنانين والمحترفين من كل نوع، الحالة مختلفة تمامًا، وهذا هو السبب في أنهم يتقاضون أجورًا جيدة. يجب عليهم بناء رأس مال من أرباحهم؛ لكنهم ينظرون إليها بتهور على أنها مجرد فائدة، وينتهون في الخراب. من ناحية أخرى، الأشخاص الذين يرثون المال يعرفون، على الأقل، كيفية التمييز بين رأس المال والفائدة، ومعظمهم يحاولون تأمين رأس مالهم وعدم التعدي عليه؛ بل إذا استطاعوا، يدخرون على الأقل ثُمن فوائدهم لمواجهة الطوارئ المستقبلية. لذلك يحافظ معظمهم على وضعهم. هذه الملاحظات القليلة حول رأس المال والفائدة لا تنطبق على الحياة التجارية، لأن التجار ينظرون إلى المال فقط كوسيلة لتحقيق

المزيد من الربح، تمامًا كما ينظر العامل إلى أدواته؛ لذلك حتى إذا كان رأس مالهم بالكامل نتيجة جهودهم الخاصة، فإنهم يحاولون الحفاظ عليه وزيادته باستخدامه. وبالتالي، فإن الثروة تجد موطنها الطبيعي في الطبقة التجارية.

عادةً ما نجد أن الأشخاص الذين يعرفون ما يعنيه أن يكونوا في حاجة وعوز أقل خوفًا من ذلك، وبالتالي أكثر ميلًا للإسراف، مقارنةً بأولئك الذين يعرفون الفقر فقط من خلال السماع. الأشخاص الذين وُلدوا ونشأوا في ظروف جيدة يكونون عادةً أكثر حرصًا على المستقبل وأكثر اقتصادًا، في الواقع، من أولئك الذين، بفضل حظ جيد، انتقلوا فجأة من الفقر إلى الثراء. يبدو هذا كما لو أن الفقر ليس شيئًا بائسًا كما يبدو من بعيد. السبب الحقيقي، مع ذلك، هو أن الشخص الذي وُلد في وضع ثري يعتبره شيئًا لا يمكنه العيش بدونه كما لا يمكنه العيش بدون الهواء؛ فهو يحميه كما يحمي حياته نفسها؛ ولذلك فهو عادةً محب للنظام، حكيم واقتصادي. لكن الشخص الذي وُلد في وضع فقير يعتبره الوضع الطبيعي، وإذا حصل على ثروة بالصدفة، فإنه يعتبرها فائضًا، شيئًا للاستمتاع به أو تبديده، لأنه إذا انتهت، يمكنه أن يعيش كما كان من قبل، مع قلق أقل؛ أو كما يقول شكسبير في هنري السادس:

...يجب التحقق من المثل القائل أن المتسولين الذين يمتطون الخيل يركضون بها حتى الموت.

لكن يجب القول إن الأشخاص من هذا النوع لديهم ثقة قوية ومفرطة، جزئيًا في القدر، وجزئيًا في الوسائل الخاصة التي رفعتهم بالفعل من الحاجة والفقر، -ثقة ليست فقط من الرأس، بل من القلب أيضًا؛ ولذلك لا ينظرون، مثل الشخص الذي وُلد غنيًا، إلى ضحالة الفقر على أنها بلا قاع، بل يعزون أنفسهم بفكرة أنه بمجرد أن يلمسوا الأرض مرة أخرى، يمكنهم أن يأخذوا رحلة صعودية أخرى .هذه السمة في الشخصية البشرية تفسر حقيقة أن النساء اللواتي كن فقيرات قبل زواجهن غالبًا ما يقدمن مطالب أكبر، ويكن أكثر إسرافًا، من أولئك اللواتي جلبن لأزواجهن مهرًا غنيًا؛ لأن

الفتيات الغنيات يجلبن معهن، عادةً، ليس فقط ثروة، بل أيضًا حماسًا أكبر، بل وأكثر من الغريزة الموروثة، للحفاظ عليها، مقارنةً بالفتيات الفقيرات. إذا شك أحد في صحة هذا، واعتقد أن العكس هو الصحيح، فسيجد سلطة لرأيه في أول هجاء لأريوستو؛ ولكن، من ناحية أخرى، يتفق الدكتور جونسون مع رأيي. يقول: "المرأة الثرية، لأنها معتادة على التعامل مع المال، تنفقه بحكمة؛ لكن المرأة التي تحصل على المال لأول مرة عند زواجها، لديها شغف كبير في إنفاقه، لدرجة أنها تبذره بغزارة". وفي أي حال، أنصح أي شخص يتزوج فتاة فقيرة ألا يترك لها رأس المال بل الفائدة فقط، وأن يحرص بشكل خاص على ألا تدير ثروة الأطفال.

لا أعتقد بأي حال من الأحوال أنني أتناول موضوعًا لا يستحق الذكر عندما أوصي الناس بالحفاظ على ما كسبوه أو ورثوه. لأن بدء الحياة بقدر كافٍ من المال يجعل المرء مستقلًا، أي يسمح له بالعيش بشكل مريح دون الحاجة إلى العمل - حتى لو كان لديه ما يكفي لنفسه فقط، دون الحديث عن الأسرة - هو ميزة لا يمكن تقديرها بما يكفي؛ لأنها تعني الإعفاء والحصانة من ذلك المرض المزمن المتمثل في الفقر، الذي يلتصق بحياة الإنسان مثل الطاعون؛ إنها تحرير من العمل القسري الذي هو نصيب كل إنسان. فقط في ظل مصير مواتٍ كهذا يمكن القول إن الإنسان وُلد حرًا، ليكون، بالمعنى الصحيح للكلمة، سيد وقته وقدراته، وقادرًا على القول كل صباح: هذا اليوم لي. ولهذا السبب بالذات، فإن الفرق بين من لديه مائة في السنة ومن لديه ألف، أصغر بكثير من الفرق بين الأول ومن لا يملك شيئًا على الإطلاق. لكن الثروة الموروثة تصل إلى أقصى قيمتها عندما تقع في يد شخص يتمتع بقدرات عقلية عالية، ويعزم على اتباع مسار حياة لا يتوافق مع كسب المال؛ لأنه عندئذٍ يكون قد مُنح مرتين من قبل القدر ويمكنه أن يعيش من أجل عبقريته؛ وسيسدد دينه للبشرية مائة مرة، بتحقيق ما لا يمكن لغيره تحقيقه، بإنتاج عمل يساهم في الخير العام، ويعود بالفخر على الإنسانية جمعاء. وقد يستخدم آخر ثروته لتعزيز المشاريع الخيرية، ويجعل نفسه مستحقًا لتقدير زملائه. لكن الشخص الذي لا يفعل أيًا من

هذه الأشياء، ولا يحاول حتى القيام بها، ولا يحاول تعلم أساسيات أي فرع من فروع المعرفة حتى يتمكن على الأقل من المساهمة في تعزيزها - مثل هذا الشخص، المولود في الثراء، هو مجرد عاطل وسارق للوقت، شخص محتقر. لن يكون سعيدًا حتى، لأن إعفاءه من الحاجة يسلمه إلى الطرف الآخر من معاناة الإنسان، وهو الملل، الذي يعد عذابًا له، لدرجة أنه كان سيكون أفضل حالًا لو أن الفقر أعطاه شيئًا ليفعله. وبما أنه يشعر بالملل، فإنه يميل إلى الإسراف، وبالتالي يفقد الميزة التي أظهر أنه غير مستحق لها. يجد عدد لا يحصى من الناس أنفسهم في حاجة، ببساطة لأنهم عندما كان لديهم المال، أنفقوه فقط للحصول على راحة مؤقتة من الشعور بالملل الذي كان يضغط عليهم.

الأمر مختلف تمامًا إذا كان الهدف هو النجاح في الحياة السياسية، حيث تكون المحاباة والأصدقاء والعلاقات ذات أهمية قصوى، من أجل الصعود بمساعدتهم خطوة بخطوة على سلم الترقية، وربما الوصول إلى القمة. في هذا النوع من الحياة، من الأفضل بكثير أن يُلقى بالمرء في العالم دون قرش واحد؛ وإذا لم يكن الطامح من عائلة نبيلة، ولكنه رجل ذو موهبة، فسيكون من مصلحته أن يكون فقيرًا تمامًا. لأن ما يسعى إليه الجميع في التعامل العادي مع زملائهم هو إثبات أنهم أقل شأنًا منه؛ وكم يكون هذا الحال أكثر في السياسة .الآن، فقط الفقير تمامًا هو الذي لديه قناعة تامة بتفوق الآخرين عليه من كل وجهة نظر، بتفاهته وانعدام قيمته، بحيث يمكنه أن يأخذ مكانه بهدوء في الآلة السياسية. هو الوحيد الذي يمكنه الاستمرار في الانحناء بما يكفي، وحتى النزول على وجهه إذا لزم الأمر؛ هو وحده الذي يمكنه الخضوع لكل شيء والضحك عليه؛ هو وحده الذي يعرف تمامًا عدم قيمة الجدارة؛ هو وحده الذي يستخدم أعلى صوته وأجرأ أسلوبه كلما اضطر للتحدث أو الكتابة عن أولئك الذين هم فوقه، أو يشغلون أي منصب ذو تأثير؛ وإذا قاموا ببعض الكتابة، فهو مستعد للإشادة بها كعمل رئيسي. هو وحده الذي يفهم كيفية التسول، وبالتالي

في وقت مبكر، عندما يكون بالكاد قد خرج من طفولته، يصبح كاهنًا عاليًا لذلك السر الخفي الذي يكشفه جوته.

"لا ينبغي لأحد أن يشتكي من الأهداف المنخفضة؛ لأنها، مهما قال الناس، هي التي تحكم العالم". لا فائدة من الشكوى من الأهداف المنخفضة؛ لأنه، مهما قال الناس، فإنها تحكم العالم.

من ناحية أخرى، الشخص الذي وُلد ولديه ما يكفي للعيش عليه يكون عادةً ذو طابع مستقل إلى حد ما؛ فهو معتاد على رفع رأسه؛ لم يتعلم كل فنون التسول؛ ربما يفترض حتى قليلاً امتلاك مواهب لا يمكنها أبدًا التنافس مع التفاهة المتملقة؛ على المدى الطويل، يدرك تفوق أولئك الذين هم فوقه، وعندما يحاولون إهانته، يصبح متمردًا وخجولًا. هذه ليست الطريقة للتقدم في العالم .بل، قد يميل مثل هذا الشخص على الأقل إلى الرأي الذي عبر عنه فولتير بحرية: لدينا يومان فقط لنعيشهما؛ ليس من المجدي أن نقضيهما في التملق للأوغاد المحتقرين. ولكن للأسف! دعني ألاحظ بالمناسبة، أن "وغد محتقر" هو صفة يمكن أن تُطلق على عدد كبير من الناس. ما يقوله جوفينال - من الصعب الصعود إذا كان فقرك أكبر من موهبتك-

"من الصعب أن يبرز أولئك الذين تعيق فضائلهم ضيق الحال في المنزل".ينطبق أكثر على مسيرة الفن والأدب منه على الطموح السياسي والاجتماعي.

لم أحسب الزوجة والأطفال ضمن ممتلكات الرجل: بل هم في حيازته. سيكون من الأسهل تضمين الأصدقاء تحت هذا العنوان؛ لكن أصدقاء الرجل لا ينتمون إليه أكثر مما ينتمي هو إليهم.

الفصل الرابع - المكانة أو مكانة الإنسان في تقدير الآخرين :

القسم الأول - السمعة.

بسبب ضعف غريب في الطبيعة البشرية، يميل الناس عادةً إلى التفكير كثيراً في رأي الآخرين عنهم؛ رغم أن أقل تأمل سيظهر أن هذا الرأي، مهما كان، ليس ضرورياً للسعادة. لذلك، من الصعب فهم لماذا يشعر الجميع بالسرور عندما يرون أن الآخرين لديهم رأي جيد عنهم، أو يقولون شيئاً يرضي غرورهم. إذا قمت بمداعبة قطة، ستخرخر؛ وبنفس الطريقة، إذا مدحت إنساناً، سيظهر على وجهه تعبير لطيف من السعادة؛ وحتى لو كان المديح كذبة واضحة، فإنه سيكون مرحباً به، إذا كان الأمر يتعلق بشيء يفتخر به. إذا صفق له الآخرون، يمكن للإنسان أن يعزي نفسه عن المصائب أو القليل الذي يحصل عليه من مصادر السعادة البشرية التي تمت مناقشتها سابقاً؛ وعلى العكس، من المدهش كيف يمكن للإنسان أن ينزعج، وفي بعض الحالات يتألم بشدة، من أي ضرر يلحق بشعوره بالأهمية الذاتية، مهما كانت طبيعة أو درجة أو ظروف الإصابة، أو من أي تقليل من شأنه أو تجاهله.

إذا كان شعور الشرف يعتمد على هذه الخصوصية في الطبيعة البشرية، فقد يكون له تأثير مفيد جداً على رفاهية الكثير من الناس، كبديل للأخلاق؛ ولكن على سعادتهم، وخاصة على راحة البال والاستقلالية التي هي أساسية للسعادة، سيكون تأثيره مزعجاً وضاراً بدلاً من أن يكون مفيداً. لذلك، من المستحسن، من وجهة نظرنا، وضع حدود لهذا الضعف، والنظر بعناية وتقدير القيمة النسبية للمزايا، وبالتالي تهدئة، قدر الإمكان، هذه الحساسية الكبيرة لرأي الآخرين، سواء كان الرأي يرضي غرورنا أو يسبب لنا الألم؛ لأنه في كلتا الحالتين، هو نفس الشعور الذي يتم لمسه. وإلا، فإن الإنسان يصبح عبداً لما يسره الآخرون أن يفكروا فيه، وكم يتطلب القليل لإزعاج أو تهدئة العقل الذي يتوق للمديح:

"كم هو سهل وصغير الشيء الذي يهدم ويعيد بناء النفس الطامعة في المديح".لذلك، سيساهم بشكل كبير في سعادتنا إذا قارنا بدقة قيمة ما يكون عليه الإنسان في ذاته ومع ما يكون عليه في أعين الآخرين. في الحالة الأولى، يشمل كل ما يملأ مدى وجودنا ويجعله ما هو عليه، باختصار، كل المزايا التي تم النظر فيها بالفعل وتلخيصها تحت عناوين الشخصية والممتلكات؛ والمجال الذي يحدث فيه كل هذا هو وعي الإنسان نفسه. من ناحية أخرى، مجال ما نحن عليه بالنسبة للآخرين هو وعيهم، وليس وعينا؛ إنه نوع الشكل الذي نصنعه في أعينهم، مع الأفكار التي يثيرها هذا. لكن هذا شيء ليس له وجود مباشر وفوري بالنسبة لنا، ولكنه يمكن أن يؤثر علينا فقط بشكل غير مباشر، بقدر ما يتم توجيه سلوك الآخرين نحونا بناءً عليه؛ وحتى في هذه الحالة، يجب أن يؤثر علينا فقط بقدر ما يمكن أن يدفعنا إلى تعديل ما نحن عليه في ذواتنا. بخلاف ذلك، ما يحدث في وعي الآخرين هو، كمسألة، غير مهم بالنسبة لنا؛ ومع مرور الوقت نصبح غير مبالين به حقاً، عندما نرى كيف أن أفكار معظم الناس سطحية وتافهة، وكيف أن أفكارهم ضيقة، ومشاعرهم دنيئة، وآرائهم منحرفة، وكمية الخطأ في معظمها؛ عندما نتعلم من التجربة كيف يتحدث الإنسان بتقليل عن زميله، عندما لا يكون مضطراً لخوفه، أو يعتقد أن ما يقوله لن يصل إلى آذان الآخرين. وإذا كان لدينا فرصة لرؤية كيف يلتقي أعظم الرجال بلا شيء سوى الإهانة من نصف دزينة من الحمقى، سنفهم أن إعطاء قيمة كبيرة لما يقوله الآخرون هو تكريم لهم أكثر من اللازم.

1 -دعني أذكر أن الأشخاص في أعلى المناصب في الحياة، بكل بريقهم وعظمتهم وعرضهم ومجدهم العام، قد يقولون: "سعادتنا تكمن بالكامل خارجنا؛ لأنها توجد فقط في عقول الآخرين".

على أي حال، فإن الشخص في وضع سيء للغاية إذا لم يجد مصدرًا للسعادة في الفئتين الأوليين من النعم التي تم تناولها بالفعل، ولكنه يضطر للبحث عنها في الفئة

الثالثة، بمعنى آخر، ليس في ما هو عليه في ذاته، بل في ما هو عليه في رأي الآخرين. لأن أساس طبيعتنا كلها، وبالتالي سعادتنا، هو بنيتنا الجسدية، والعامل الأكثر أهمية في السعادة هو الصحة، وبعد الصحة تأتي القدرة على الحفاظ على استقلاليتنا والتحرر من الهموم. لا يمكن أن يكون هناك تنافس أو تعويض بين هذه العوامل الأساسية من جهة، والشرف، والعظمة، والرتبة، والسمعة من جهة أخرى، مهما كانت قيمة الأخيرة. لا أحد سيتردد في التضحية بالأخيرة من أجل الأولى، إذا كان ذلك ضروريًا. يجب أن نضيف الكثير إلى سعادتنا من خلال الاعتراف البسيط بالحقيقة البسيطة أن الوجود الحقيقي لكل شخص يكمن في جلده الخاص، وليس في آراء الآخرين؛ وبالتالي، فإن الظروف الفعلية لحياتنا الشخصية - الصحة، المزاج، القدرة، الدخل، الزوجة، الأطفال، الأصدقاء، المنزل - هي أكثر أهمية بمئة مرة لسعادتنا من ما يعتقده الآخرون عنا: وإلا سنكون بائسين. وإذا أصر الناس على أن الشرف أعز من الحياة نفسها، فإن ما يعنونه حقًا هو أن الوجود والرفاهية لا شيء مقارنة بآراء الآخرين. بالطبع، قد يكون هذا مجرد طريقة مبالغ فيها لقول الحقيقة النثرية أن السمعة، أي رأي الآخرين عنا، لا غنى عنها إذا أردنا تحقيق أي تقدم في العالم؛ لكنني سأعود إلى ذلك لاحقًا. عندما نرى أن كل ما يكرس الرجال حياتهم لتحقيقه، دون توفير أي جهد ومواجهة ألف مشقة وخطر في العملية، ليس له في النهاية أي هدف آخر سوى رفع أنفسهم في تقدير الآخرين؛ عندما نرى أن ليس فقط المناصب، والألقاب، والزخارف، ولكن أيضًا الثروة، بل حتى المعرفة والفن، يتم السعي إليها فقط للحصول على، كهدف نهائي لكل جهد، احترام أكبر من زملائهم البشر - أليس هذا دليلاً مؤسفًا على مدى الحماقة البشرية؟ إن إعطاء قيمة عالية جدًا لرأي الآخرين هو خطأ شائع في كل مكان؛ خطأ قد يكون متجذرًا في الطبيعة البشرية نفسها، أو نتيجة للحضارة والترتيبات الاجتماعية بشكل عام؛ ولكن، مهما كان مصدره، فإنه يمارس تأثيرًا غير معتدل على كل ما نقوم به، ويضر بسعادتنا. يمكننا تتبعه من الاهتمام الخائف والعبودي بما سيقوله الآخرون، وصولاً إلى الشعور الذي جعل فيرجينيوس يغرس الخنجر في قلب ابنته، أو يدفع العديد من الرجال للتضحية

بالهدوء، والثروة، والصحة، وحتى الحياة نفسها، من أجل المجد بعد الموت. بلا شك، هذا الشعور هو أداة مريحة للغاية في أيدي أولئك الذين يتحكمون أو يوجهون زملائهم البشر؛ وبالتالي نجد أنه في كل خطة لتدريب البشرية على الطريق الذي يجب أن تسلكه، يحتل الحفاظ على الشعور بالشرف وتعزيزه مكانة مهمة.

لكن الأمر مختلف تماماً عندما يتعلق بتأثيره على سعادة الإنسان، وهو ما نهدف إلى مناقشته هنا؛ ويجب علينا أن نحرص على إقناع الناس بعدم إعطاء أهمية كبيرة لما يعتقده الآخرون عنهم. تُظهر التجربة اليومية، مع ذلك، أن هذا هو الخطأ الذي يصر الناس على ارتكابه؛ فمعظم الناس يضعون قيمة كبيرة على ما يعتقده الآخرون، ويهتمون به أكثر مما يحدث في وعيهم الخاص، وهو الشيء الأكثر حضوراً ومباشرة لهم. إنهم يعكسون الترتيب الطبيعي، فيعتبرون آراء الآخرين كوجود حقيقي ووعيهم الخاص كشيء ظلي؛ مما يجعل المشتق والثانوي هو الأساسي، ويعتبرون الصورة التي يقدمونها للعالم أكثر أهمية من ذواتهم .من خلال محاولة الحصول على نتيجة مباشرة وفورية مما ليس له وجود حقيقي مباشر أو فوري، يقعون في نوع من الحماقة يسمى الغرور - المصطلح المناسب لما ليس له قيمة صلبة أو جوهرية. مثل البخيل، ينسى هؤلاء الناس الهدف في حرصهم على الحصول على الوسائل.

الحقيقة هي أن القيمة التي نضعها على رأي الآخرين، وجهدنا المستمر في هذا الصدد، كلاهما خارج عن النسبة المعقولة لأي نتيجة قد نأمل في تحقيقها؛ بحيث يمكن اعتبار هذا الاهتمام بموقف الآخرين نوعاً من الهوس العالمي الذي يرثه الجميع. في كل ما نقوم به، يكاد يكون أول ما نفكر فيه هو، ماذا سيقول الناس؛ ويمكن تتبع نصف المشاكل والمضايقات في الحياة إلى قلقنا بشأن هذا الأمر؛ إنه القلق الذي يكمن في أساس كل شعورنا بالأهمية الذاتية، الذي غالباً ما يُصاب بالإحباط لأنه حساس جداً بشكل مرضي. إنه القلق بشأن ما سيقوله الآخرون الذي يكمن وراء كل غرورنا وتظاهرنا، نعم، وكل مظاهرنا وتفاخرنا أيضاً. بدون هذا القلق،

لن يكون هناك عُشر الفخامة التي توجد .الكبرياء بكل أشكاله، والنقطة الشرفية والدقة، مهما كانت متنوعة في نوعها أو مجالها، هي في الأساس لا شيء سوى هذا - القلق بشأن ما سيقوله الآخرون - وما التضحيات التي يكلفها! يمكن رؤية ذلك حتى في الطفل؛ وعلى الرغم من وجوده في كل فترة من الحياة، إلا أنه يكون أقوى في العمر؛ لأنه عندما تفشل القدرة على المتعة الحسية، لا يبقى للغرور والكبرياء سوى الجشع ليشاركهما في السيادة. ربما يكون الفرنسيون أفضل مثال على هذا الشعور، وبينهم هو وباء منتظم، يظهر أحياناً في الطموح الأكثر سخافة، أو في نوع من الغرور الوطني السخيف والتفاخر الأكثر وقاحة. ومع ذلك، فإنهم يحبطون مكاسبهم الخاصة، لأن الآخرين يسخرون منهم ويطلقون عليهم اسم "الأمة العظيمة."

لتوضيح هذا الاحترام المفرط والمبالغ فيه لرأي الآخرين، دعني أستشهد بمقالة من صحيفة التايمز بتاريخ 31 مارس 1846، التي تقدم وصفاً مفصلاً لإعدام توماس ويكس، وهو متدرب قتل سيده بدافع الانتقام. هنا نجد ظروفاً غير عادية وشخصية استثنائية، مما يجعلها مناسبة جداً لغرضنا؛ وهذه العوامل مجتمعة تقدم صورة واضحة لهذه الحماقة المتأصلة بعمق في الطبيعة البشرية، وتسمح لنا بفهم مدى انتشارها. في صباح يوم الإعدام، يقول التقرير، كان القس حاضرًا مبكرًا معه، لكن ويكس، رغم هدوءه الظاهري، لم يظهر أي اهتمام بخدماته، وكان يبدو قلقاً فقط بشأن الظهور "بشجاعة" أمام المتفرجين على نهايته المخزية. في الموكب، أخذ ويكس مكانه بحماس، وعندما دخل ساحة الكنيسة، قال بصوت عالٍ بما يكفي ليسمعه عدة أشخاص بالقرب منه: "حسنًا، كما قال الدكتور دود، سأعرف قريبًا السر الكبير". عند وصوله إلى المشنقة، صعد البائس إلى المنصة دون أدنى مساعدة، وعندما وصل إلى المركز، انحنى مرتين للمشاهدين، مما أثار هتافاً هائلاً من الحشد المنحط أسفله.

هذا مثال رائع على كيفية اهتمام الإنسان، وهو يواجه الموت بأبشع صوره وأبدية ما بعده، فقط بالانطباع الذي يتركه على حشد من المتفرجين، والرأي الذي يتركه في أذهانهم. كان هناك شيء مشابه في حالة ليكومبت، الذي أُعدم في فرانكفورت، أيضاً في عام 1846، لمحاولته اغتيال الملك. في المحاكمة، كان منزعجاً جداً لأنه لم يُسمح له بالظهور بملابس لائقة أمام المجلس الأعلى؛ وفي يوم الإعدام، كان حزنه الخاص أنه لم يُسمح له بالحلاقة. ليس فقط في الأزمنة الحديثة يحدث هذا النوع من الأمور. يخبرنا ماتيو أليمان، في مقدمة روايته الشهيرة "جوزمان دي ألفاراشي"، أن العديد من المجرمين المهووسين، بدلاً من تكريس ساعاتهم الأخيرة لرفاهية أرواحهم، كما ينبغي عليهم، يهملون هذا الواجب من أجل إعداد وحفظ خطاب لإلقائه من على المشنقة.

أخذت هذه الحالات القصوى كأفضل أمثلة لما أعنيه؛ لأنها تعكس بشكل مكبر طبيعتنا الخاصة. قلقنا جميعاً، ومشاكلنا، ومضايقاتنا، ومخاوفنا، وجهودنا المضنية تعود، في الغالبية العظمى من الحالات، إلى ما سيقوله الآخرون؛ ونحن بنفس القدر من الحماقة في هذا الصدد مثل هؤلاء المجرمين البائسين. الحسد والكراهية غالباً ما يمكن تتبعهما إلى مصدر مشابه.

من الواضح أن السعادة، التي تتكون في معظمها من راحة البال والرضا، يمكن تحقيقها بشكل كبير من خلال تقليل هذا الدافع البشري إلى حدود معقولة، ربما إلى جزء من خمسين مما هو عليه الآن. بفعل ذلك، سنتخلص من شوكة في الجسد تسبب لنا الألم باستمرار. لكن هذا مهمة صعبة للغاية، لأن هذا الدافع هو انحراف طبيعي ومتأصل في الطبيعة البشرية. يقول تاسيتوس: "شهوة الشهرة هي آخر ما يتخلى عنه الرجل الحكيم". الطريقة الوحيدة لإنهاء هذه الحماقة العالمية هي أن ندرك بوضوح أنها حماقة؛ ويمكن تحقيق ذلك من خلال الاعتراف بأن معظم الآراء في رؤوس الناس تميل إلى أن تكون خاطئة ومنحرفة وغير صحيحة وسخيفة، وبالتالي

فهي غير جديرة بالاهتمام. علاوة على ذلك، فإن آراء الآخرين يمكن أن يكون لها تأثير ضئيل جداً وحقيقي علينا في معظم الظروف وشؤون الحياة. مرة أخرى، هذه الآراء تكون عادةً ذات طابع غير ملائم لدرجة أنها قد تزعج الإنسان حتى الموت إذا سمع كل ما قيل عنه، أو النبرة التي تحدثوا بها عنه. وأخيراً، من بين أمور أخرى، يجب أن نكون واضحين بشأن حقيقة أن الشرف نفسه ليس له قيمة مباشرة حقيقية، بل قيمة غير مباشرة فقط. إذا تم تحويل الناس بشكل عام عن هذه الحماقة العالمية، فإن النتيجة ستكون إضافة كبيرة إلى راحة بالنا وبهجتنا، بحيث يبدو الأمر غير معقول في الوقت الحاضر؛ سيقدم الناس جبهة أكثر ثباتاً وثقة للعالم، ويتصرفون بشكل عام بقدر أقل من الإحراج والتقييد. من الملاحظ أن نمط الحياة المتقاعد له تأثير مفيد للغاية على راحة بالنا، وهذا يرجع أساساً إلى أننا نهرب من العيش باستمرار في مرأى الآخرين، ونعير اهتماماً دائماً لآرائهم العارضة؛ بكلمة واحدة، نحن قادرون على العودة إلى أنفسنا. في الوقت نفسه، يمكن تجنب قدر كبير من المصائب الإيجابية، التي ننجذب إليها الآن بالسعي وراء الظلال، أو، للتحدث بدقة أكثر، بالانغماس في قطعة من الحماقة الضارة؛ وبالتالي سيكون لدينا المزيد من الاهتمام لإعطائه للحقائق الصلبة والاستمتاع بها مع انقطاع أقل مما هو عليه الآن. ولكن} اليونانية chalepa : —{ga kalaما يستحق القيام به صعب القيام به.

2- الكبرياء.

الحماقة في طبيعتنا التي نناقشها تنبثق بثلاثة أشكال: الطموح، الغرور، والكبرياء. الفرق بين الأخيرين هو أن الكبرياء هو اقتناع راسخ بقيمة الفرد الفائقة في جانب معين؛ بينما الغرور هو الرغبة في إثارة هذا الاقتناع لدى الآخرين، وعادة ما يكون مصحوباً بالأمل السري في الوصول إلى نفس الاقتناع في النهاية. الكبرياء يعمل من الداخل؛ فهو التقدير المباشر للذات. الغرور هو الرغبة في الوصول إلى هذا التقدير بشكل غير مباشر، من الخارج. لذا نجد أن الأشخاص المغرورين يتحدثون كثيراً، بينما الأشخاص الفخورين يكونون صامتين. لكن الشخص المغرور يجب أن يدرك أن الرأي الجيد للآخرين، الذي يسعى إليه، يمكن الحصول عليه بسهولة أكبر وبشكل مؤكد من خلال الصمت المستمر بدلاً من الكلام، حتى لو كان لديه أشياء جيدة ليقولها. أي شخص يرغب في التظاهر بالكبرياء ليس بالضرورة شخصاً فخوراً؛ لكنه سيضطر قريباً إلى التخلي عن هذا، كما هو الحال مع أي شخصية متصنعة أخرى.

فقط الاقتناع الراسخ وغير القابل للزعزعة بالقيمة الفائقة والتميز الخاص هو ما يجعل الإنسان فخوراً بالمعنى الحقيقي للكلمة، وهو اقتناع قد يكون، بلا شك، خاطئاً أو يستند إلى مزايا ذات طابع عرضي وتقليدي: ومع ذلك، فإن الكبرياء لا يزال كبرياء طالما كان موجوداً بجدية حقيقية. وبما أن الكبرياء متجذر في الاقتناع، فإنه يشبه كل شكل آخر من أشكال المعرفة في عدم كونه ضمن نطاق تحكمنا. أسوأ عدو للكبرياء، أعني أكبر عقبة أمامه، هو الغرور، الذي يسعى للحصول على تصفيق العالم من أجل الحصول على الأساس اللازم لرأي عالٍ عن قيمة الفرد، بينما يستند الكبرياء إلى اقتناع مسبق بها.

من الصحيح تمامًا أن الكبرياء يُنتقد عادةً ويُستهجن، لكن غالبًا ما يأتي هذا الانتقاد من أولئك الذين ليس لديهم ما يفتخرون به. في ظل الوقاحة والجرأة التي يتمتع بها معظم الناس، من يمتلك أي نوع من التفوق أو الجدارة يجب أن يظل واعيًا بتميزه،

إذا لم يرغب في أن يُنسى تمامًا. لأن الشخص الطيب القلب الذي يتجاهل امتيازاته ويتعامل مع الناس كما لو كان على مستواهم، سيجد أنهم يعاملونه بصراحة وصدق كواحد منهم. هذه النصيحة موجهة بشكل خاص لأولئك الذين يتمتعون بتفوق من أعلى نوع - التفوق الحقيقي، أعني، ذو الطبيعة الشخصية البحتة - الذي لا يمكن، مثل الأوامر والألقاب، أن يجذب العين أو الأذن في كل لحظة. وإلا، سيجدون أن الألفة تولد الاحتقار، كما قال الرومان: "العبث مع العبد، وسرعان ما سيظهر كعبه"، وهو مثل عربي ممتاز .ولا ينبغي لنا أن نحتقر ما قاله هوراس: استحوذ على الشهرة التي تستحقها. لا شك أن التواضع عندما أصبح فضيلة، كان ذلك مفيدًا جدًا للأغبياء؛ لأن الجميع يتوقع أن يتحدث عن نفسه كما لو كان واحدًا منهم. هذا هو التساوي بالفعل؛ لأنه يبدو كما لو لم يكن هناك سوى الأغبياء في العالم..

أرخص أنواع الكبرياء هو الكبرياء الوطني؛ لأن الشخص الذي يفتخر بأمته فقط، يثبت أنه لا يمتلك صفات شخصية يفتخر بها؛ وإلا لما لجأ إلى تلك الصفات التي يشترك فيها مع ملايين من أبناء وطنه. الشخص الذي يتمتع بصفات شخصية مهمة سيكون أكثر استعدادًا لرؤية أوجه القصور في أمته بوضوح، لأن عيوبها ستكون دائمًا أمام عينيه. لكن كل أحمق بائس ليس لديه ما يفتخر به يتبنى، كملاذ أخير، الكبرياء في الأمة التي ينتمي إليها؛ فهو مستعد وسعيد للدفاع عن جميع أخطائها وحماقاتها بكل ما أوتي من قوة، مما يعوضه عن شعوره بالنقص .على سبيل المثال، إذا تحدثت عن التعصب الغبي والمذل للأمة الإنجليزية بالازدراء الذي تستحقه، فلن تجد بالكاد إنجليزيًا واحدًا من بين خمسين يوافقك الرأي؛ ولكن إذا وجدت واحدًا، فسيكون عادةً شخصًا ذكيًا.

الألمان ليس لديهم كبرياء وطني، مما يظهر مدى صدقهم، كما يعلم الجميع !ومدى عدم صدق أولئك الذين، بتظاهر سخيف، يدعون أنهم فخورون ببلدهم - الإخوة الألمان والديماغوجيون الذين يغازلون العامة لخداعهم. لقد سمعت أن البارود

اخترعه ألماني. أشك في ذلك. يسأل ليشتنبرغ: لماذا لا يهتم الرجل الذي ليس ألمانيًا بالتظاهر بأنه واحد؛ وإذا تظاهر بشيء، فإنه يتظاهر بأنه فرنسي أو إنجليزي؟

مهما كان الأمر، فإن الفردية هي شيء أكثر أهمية بكثير من الوطنية، وتستحق في أي شخص معين اعتبارًا أكبر بألف مرة. ولأنك لا تستطيع التحدث عن الطابع الوطني دون الإشارة إلى جماهير كبيرة من الناس، فمن المستحيل أن تكون صادقًا في مدحك وفي نفس الوقت صادقًا. الطابع الوطني هو مجرد اسم آخر للشكل الخاص الذي تتخذه صغائر البشر وانحرافاتهم ودناءتهم في كل بلد. إذا شعرنا بالاشمئزاز من واحدة، فإننا نمدح أخرى، حتى نشعر بالاشمئزاز منها أيضًا. كل أمة تسخر من الأمم الأخرى، وكلها على حق.

محتويات هذا الفصل، الذي يتناول، كما قلت، ما نمثله في العالم، أو ما نحن عليه في أعين الآخرين، يمكن تقسيمها إلى ثلاثة رؤوس: الشرف، الرتبة، والشهرة.

3 –المكانة .

دعونا نبدأ بالرتبة، حيث يمكن تناولها ببضع كلمات، على الرغم من أنها تلعب دورًا مهمًا في أعين العامة والفلاسفة، وتعتبر جزءًا مفيدًا في آلية الدولة.

الرتبة لها قيمة تقليدية بحتة. بصراحة، هي مجرد وهم؛ طريقتها هي فرض احترام مصطنع، وفي الواقع، الأمر كله مجرد مهزلة.

يمكن القول إن الأوسمة هي بمثابة سندات صرف تعتمد على الرأي العام، وقيمة هذه الأوسمة تقاس بمدى مصداقية مانحها. بالطبع، كبديل للمعاشات التقاعدية، توفر الأوسمة للدولة الكثير من المال؛ بالإضافة إلى أنها تخدم غرضًا مفيدًا جدًا إذا تم توزيعها بتمييز وحكمة. لأن الناس بشكل عام لديهم أعين وآذان، هذا صحيح؛ لكن ليس لديهم الكثير من الحكم، أو حتى الذاكرة .هناك العديد من خدمات الدولة التي تتجاوز نطاق فهمهم؛ وهناك خدمات أخرى تُقدر وتُثمن لفترة من الزمن، ثم تُنسى بسرعة. لذلك، يبدو لي من المناسب جدًا أن تعلن الصليب أو النجمة للجماهير دائمًا وفي كل مكان، أن هذا الرجل ليس مثلكم؛ لقد فعل شيئًا مميزًا. لكن الأوسمة تفقد قيمتها عندما تُوزع بشكل غير عادل، أو بدون اختيار دقيق، أو بأعداد كبيرة جدًا: يجب أن يكون الأمير حذرًا في منحها كما هو الحال مع رجل الأعمال في توقيع سند.

من غير الضروري كتابة "للخدمة المتميزة" على أي وسام؛ لأن كل وسام يجب أن يكون للخدمة المتميزة. هذا بديهي.

4 - الشرف

الشرف هو مسألة أكبر بكثير من الرتبة، وأكثر صعوبة في النقاش. دعونا نبدأ بمحاولة تعريفه.

إذا قلت إن الشرف هو الضمير الخارجي، والضمير هو الشرف الداخلي، فلا شك أن الكثير من الناس سيوافقون؛ لكن سيكون هناك مظهر أكثر من الجوهر في مثل هذا التعريف، ولن يصل إلى جوهر المسألة. أفضل أن أقول إن الشرف هو، من جانبه الموضوعي، رأي الآخرين حول قيمتنا؛ ومن جانبه الذاتي، هو الاحترام الذي نوليه لهذا الرأي. من هذا المنظور، أن تكون رجل شرف يعني ممارسة تأثير غالبًا ما يكون صحيًا جدًا، ولكنه ليس بالضرورة تأثيرًا أخلاقيًا بحتًا.

مشاعر الشرف والخجل موجودة في كل إنسان ليس فاسدًا تمامًا، ويُعترف بالشرف في كل مكان كشيء ذو قيمة خاصة. السبب في ذلك هو كما يلي:

بمفرده، يمكن للإنسان أن يحقق القليل جدًا؛ فهو مثل روبنسون كروزو في جزيرة مهجورة. فقط في المجتمع يمكن لقدرات الإنسان أن تُستدعى إلى النشاط الكامل. يكتشف هذا بسرعة عندما يبدأ وعيه في التطور، وينشأ فيه الرغبة في أن يُنظر إليه كعضو مفيد في المجتمع، كشخص قادر على أداء دوره كإنسان pro parte virili - -وبالتالي يكتسب حقًا في فوائد الحياة الاجتماعية. الآن، لكي يكون عضوًا مفيدًا في المجتمع، يجب على المرء أن يفعل شيئين: أولاً، ما يُتوقع من الجميع فعله في كل مكان؛ وثانيًا، ما تتطلبه وتفرضه مكانته الخاصة في العالم.

لكن الإنسان يكتشف بسرعة أن كل شيء يعتمد على كونه مفيدًا، ليس في رأيه الخاص، بل في رأي الآخرين؛ ولذلك يحاول بأقصى جهده أن يترك انطباعًا إيجابيًا على العالم، الذي يعلق عليه قيمة عالية. ومن هنا، هذه السمة البدائية والفطرية

للطبيعة البشرية، التي تُسمى شعور الشرف، أو، من جانب آخر، شعور الخجل - verecundia.هذا هو ما يجلب الاحمرار إلى وجنتيه عند التفكير في السقوط المفاجئ في تقدير الآخرين، حتى عندما يعلم أنه بريء، بل حتى إذا امتدت تقصيره إلى عدم التزام مطلق، بل فقط إلى التزام أخذه على عاتقه بإرادته الحرة. وعلى العكس، لا شيء في الحياة يمنح الإنسان شجاعة كبيرة مثل الحصول على أو تجديد الاقتناع بأن الآخرين ينظرون إليه بعين الرضا؛ لأن ذلك يعني أن الجميع يتحدون لتقديم المساعدة والحماية له، وهو ما يعد حصنًا أقوى بكثير ضد مصائب الحياة من أي شيء يمكنه فعله بنفسه.

تنوع العلاقات التي يمكن أن يقف فيها الإنسان مع الآخرين للحصول على ثقتهم، أي رأيهم الجيد، يؤدي إلى تمييز بين عدة أنواع من الشرف، تعتمد بشكل رئيسي على الأوجه المختلفة التي قد يتخذها meum تجاهtuum ؛ أو، مرة أخرى، على أداء مختلف التعهدات؛ أو أخيرًا، على علاقة الجنسين. ومن هنا، هناك ثلاثة أنواع رئيسية من الشرف، كل منها يأخذ أشكالًا مختلفة - الشرف المدني، الشرف الرسمي، والشرف الجنسي.

الشرف المدني له أوسع نطاق. يتكون من الافتراض بأننا سنحترم حقوق الآخرين دون قيد أو شرط، وبالتالي، لا نستخدم أي وسائل غير عادلة أو غير قانونية للحصول على ما نريد. إنه شرط كل تفاعل سلمي بين الإنسان والإنسان؛ ويتم تدميره بأي شيء يعارض هذا التفاعل السلمي بشكل علني وواضح، أي شيء، بالتالي، يستلزم عقوبة من يد القانون، على افتراض أن العقوبة عادلة.

الأساس النهائي للشرف هو الاقتناع بأن الشخصية الأخلاقية لا تتغير: فعمل سيء واحد يعني أن الأعمال المستقبلية من نفس النوع ستكون، في ظل ظروف مشابهة، سيئة أيضاً. هذا ما يعبر عنه بشكل جيد استخدام الكلمة الإنجليزية "character" بمعنى الائتمان، السمعة، الشرف. لذا، فإن الشرف، بمجرد فقدانه، لا يمكن

استعادته؛ إلا إذا كان الفقدان ناتجاً عن خطأ، مثلما يحدث إذا تم تشويه سمعة شخص أو تم تفسير أفعاله بشكل خاطئ. لذلك، يوفر القانون علاجات ضد التشهير والقذف وحتى الإهانة؛ لأن الإهانة، رغم أنها لا تتعدى كونها إساءة لفظية، هي نوع من التشهير المختصر مع إخفاء الأسباب. ما أعنيه يمكن التعبير عنه جيداً بالعبارة اليونانية .{Greek: estin hae loidoria diabolae}: صحيح أنه إذا أساء شخص إلى آخر، فإنه يظهر ببساطة أنه ليس لديه أسباب حقيقية أو صحيحة للشكوى ضده؛ لأنه، في غير ذلك، كان سيقدم هذه الأسباب كفرضيات، ويعتمد على مستمعيه لاستخلاص النتيجة بأنفسهم: بدلاً من ذلك، يقدم النتيجة ويترك الفرضيات، معتمداً على أن الناس سيفترضون أنه فعل ذلك فقط من أجل الاختصار.

الشرف المدني يستمد وجوده واسمه من الطبقات الوسطى؛ لكنه ينطبق على الجميع، دون استثناء الأعلى. لا يمكن لأي شخص تجاهله، وهو أمر جدي للغاية، يجب على الجميع الحرص على عدم الاستخفاف به. الشخص الذي يخون الثقة قد فقد الثقة إلى الأبد، مهما فعل، ومهما كان؛ ولا يمكن أبداً تجنب العواقب المريرة لفقدان الثقة.

هناك معنى يمكن فيه القول بأن الشرف له طابع سلبي مقابل الطابع الإيجابي للشهرة. فالشرف ليس هو الرأي الذي يحمله الناس عن صفات معينة قد يمتلكها الشخص بشكل حصري: بل هو الرأي الذي يحمله الناس عن الصفات التي يتوقع أن يظهرها الشخص، والتي يجب ألا يخونها. لذا، يعني الشرف أن الشخص ليس استثنائياً؛ بينما تعني الشهرة أنه كذلك. الشهرة هي شيء يجب كسبه؛ الشرف، فقط شيء يجب عدم فقدانه. غياب الشهرة هو الغموض، وهو مجرد سلبية؛ لكن فقدان الشرف هو العار، وهو صفة إيجابية. هذا الطابع السلبي للشرف يجب ألا يختلط بأي شيء سلبي؛ لأن الشرف فوق كل شيء نشط في عمله. إنه الصفة الوحيدة التي تنبع مباشرة من الشخص الذي يظهرها؛ إنه يتعلق تماماً بما يفعله الشخص وما لا

يفعله، وليس له علاقة بأفعال الآخرين أو العقبات التي يضعونها في طريقه .إنه شيء بالكامل في قدرتنا .{Greek: ton ephaemon}—هذا التمييز، كما سنرى لاحقاً، يميز الشرف الحقيقي عن الشرف الزائف للفروسية.

التشهير هو السلاح الوحيد الذي يمكن من خلاله مهاجمة الشرف من الخارج؛ والطريقة الوحيدة لصد هذا الهجوم هي دحض التشهير بكمية مناسبة من العلنية وكشف الشخص الذي ينشره.

السبب في احترام كبار السن هو أنهم أظهروا خلال حياتهم ما إذا كانوا قادرين على الحفاظ على شرفهم دون تشويه؛ بينما لم يتم اختبار شرف الشباب، على الرغم من أنهم يُنسب إليهم امتلاكه. فطول العمر، الذي يتساوى فيه الإنسان مع الحيوانات الدنيا بل ويتفوق عليها، والخبرة، التي هي مجرد معرفة أعمق بطرق العالم، لا يمكن أن تكون سبباً كافياً للاحترام الذي يُطلب من الشباب إظهاره تجاه كبار السن: لأنه إذا كان الأمر مجرد مسألة سنوات، فإن الضعف الذي يصاحب الشيخوخة يستدعي الاعتبار بدلاً من الاحترام. ومع ذلك، فإن حقيقة أن الشعر الأبيض دائماً ما يفرض الاحترام هي حقيقة ملحوظة—احترام فطري وغريزي. التجاعيد—وهي علامة أكثر تأكيداً على الشيخوخة—لا تفرض أي احترام على الإطلاق؛ لم تسمع أبداً أحداً يتحدث عن التجاعيد الموقرة؛ لكن الشعر الأبيض الموقر هو تعبير شائع.

الشرف له قيمة غير مباشرة فقط. لأن ما يعتقده الآخرون عنا، إذا كان يؤثر علينا على الإطلاق، يمكن أن يؤثر علينا فقط بقدر ما يحكم سلوكهم تجاهنا، وفقط طالما نعيش معهم أو نتعامل معهم. ولكن للمجتمع وحده ندين بالأمان الذي نتمتع به نحن وممتلكاتنا في حالة الحضارة؛ في كل ما نقوم به نحتاج إلى مساعدة الآخرين، ويجب أن يكون لديهم ثقة فينا قبل أن يتمكنوا من التعامل معنا. وبالتالي، فإن رأيهم فينا هو، بشكل غير مباشر، مسألة ذات أهمية كبيرة؛ على الرغم من أنني لا أرى كيف يمكن أن يكون له قيمة مباشرة أو فورية. هذا هو الرأي الذي يحمله أيضاً شيشرون.

أوافق تماماً، كما يكتب، مع ما كان يقوله كريسيبوس وديوجينيس، أن السمعة الجيدة لا تستحق رفع إصبع للحصول عليها، إذا لم تكن مفيدة للغاية. وقد أصر هلفيتيوس على هذه الحقيقة بشكل مطول في عمله الرئيسي"De l'Esprit" ، الذي خلص فيه إلى أننا نحب التقدير ليس لذاته، بل فقط للفوائد التي يجلبها. وكما أن الوسائل لا يمكن أن تكون أكثر من الغاية، فإن القول الذي يُعطى له الكثير من الأهمية، "الشرف أعز من الحياة نفسها"، هو، كما لاحظت، بيان مبالغ فيه للغاية. هذا هو الحال إذن بالنسبة للشرف المدني.

الشرف الرسمي هو الرأي العام للناس بأن الشخص الذي يشغل أي منصب يمتلك بالفعل الصفات اللازمة لأداء جميع الواجبات المتعلقة به بشكل صحيح. كلما زادت وأصبحت الواجبات التي يجب على الشخص أداؤها في الدولة أكبر وأكثر أهمية، وكلما ارتفع المنصب الذي يشغله وأصبح أكثر تأثيراً، كلما زادت قوة الرأي الذي يحمله الناس عن الصفات الأخلاقية والفكرية التي تجعله مناسباً لمنصبه. لذلك، كلما ارتفع منصبه، زادت درجة الشرف التي يجب أن تُمنح له، والتي تُعبر عنها الألقاب والأوسمة والسلوك العام الخاضع للآخرين تجاهه .كقاعدة عامة، يشير الرتبة الرسمية للشخص إلى درجة الشرف التي يجب أن تُمنح له، بغض النظر عن مدى تعديل هذه الدرجة بقدرة الجماهير على تكوين أي فكرة عن أهميتها. ومع ذلك، في الواقع، يُمنح شرف أكبر للشخص الذي يؤدي واجبات خاصة مقارنة بالمواطن العادي، الذي يتكون شرفه بشكل رئيسي من تجنب العار.

يتطلب الشرف الرسمي أيضاً أن يحافظ الشخص الذي يشغل منصباً على احترامه، من أجل زملائه ومن سيأتي بعده. يمكن للمسؤول الحفاظ على هذا الاحترام من خلال الالتزام بواجباته بشكل صحيح، وصد أي هجوم قد يُشن على المنصب نفسه أو على شاغله: يجب عليه، على سبيل المثال، ألا يتجاهل أي بيان يفيد بأن واجبات المنصب لا تُؤدى بشكل صحيح، أو أن المنصب نفسه لا يساهم في الصالح العام.

يجب عليه إثبات الطبيعة غير المبررة لمثل هذه الهجمات من خلال فرض العقوبة القانونية عليها.

يتبع شرف الشخصيات الرسمية شرف أولئك الذين يخدمون الدولة بأي صفة أخرى، مثل الأطباء والمحامين والمعلمين، أي شخص، باختصار، يعلن علناً أنه مؤهل لممارسة مهارة خاصة، يطالب بممارستها؛ بكلمة أخرى، شرف كل من يأخذ أي تعهدات عامة. تحت هذا العنوان يأتي الشرف العسكري، بالمعنى الحقيقي للكلمة، الرأي بأن الأشخاص الذين التزموا بالدفاع عن بلدهم يمتلكون بالفعل الصفات اللازمة التي ستمكنهم من القيام بذلك، وخاصة الشجاعة والشجاعة الشخصية والقوة، وأنهم مستعدون تماماً للدفاع عن بلدهم حتى الموت، وألا يتخلوا أبداً وتحت أي ظرف عن العلم الذي أقسموا له الولاء. لقد تناولت هنا الشرف الرسمي بمعنى أوسع من الذي يُستخدم عادة، وهو الاحترام الذي يجب على المواطنين إظهاره للمنصب نفسه.

عند معالجة الشرف الجنسي والمبادئ التي يستند إليها، يلزم المزيد من الاهتمام والتحليل؛ وما سأقوله سيدعم موقفي بأن كل الشرف يستند حقاً إلى أساس نفعي. هناك قسمان طبيعيان للموضوع—شرف النساء وشرف الرجال، في كل جانب يصدر عنه روح جماعية مفهومة جيداً. الأول هو الأكثر أهمية بكثير من الاثنين، لأن السمة الأكثر جوهرية في حياة المرأة هي علاقتها بالرجل.

الشرف الأنثوي هو الرأي العام بشأن الفتاة بأنها طاهرة، وبشأن الزوجة بأنها مخلصة. تعتمد أهمية هذا الرأي على الاعتبارات التالية. تعتمد النساء على الرجال في جميع علاقات الحياة؛ بينما يعتمد الرجال على النساء، يمكن القول، في علاقة واحدة فقط. لذا، يتم ترتيب تنظيم للتبعية المتبادلة—يتولى الرجل مسؤولية جميع احتياجات المرأة وأيضاً الأطفال الذين ينشأون من اتحادهما—وهو ترتيب يستند إليه رفاه الجنس الأنثوي بأكمله. لتنفيذ هذا الخطة، يجب على النساء أن يتحدن معاً بروح

جماعية، ويقدمن جبهة واحدة غير منقسمة أمام عدوهما المشترك، الرجل—الذي يمتلك كل خيرات الأرض، بفضل قوته الجسدية والفكرية الفائقة—من أجل محاصرته وغزوه، وبالتالي الحصول عليه وعلى جزء من تلك الخيرات. لتحقيق هذا الهدف، يعتمد شرف جميع النساء على فرض قاعدة أن لا تعطي المرأة نفسها لرجل إلا في إطار الزواج، لكي يُجبر كل رجل، كما لو كان، على الاستسلام والتحالف مع امرأة؛ من خلال هذا الترتيب يتم توفير احتياجات الجنس الأنثوي بأكمله. هذا هو نتيجة يمكن تحقيقها فقط من خلال الالتزام الصارم بالقاعدة؛ وبالتالي، تظهر النساء في كل مكان روحاً جماعية حقيقية في الإصرار بعناية على الحفاظ عليها. أي فتاة تخالف القاعدة تخون الجنس الأنثوي بأكمله، لأن رفاهه سيتدمر إذا فعلت كل امرأة الشيء نفسه؛ لذا يتم نبذها بالخزي كمن فقدت شرفها. لا ترغب أي امرأة في التعامل معها بعد ذلك؛ يتم تجنبها كما يتم تجنب الطاعون. نفس المصير يُمنح للمرأة التي تخالف عقد الزواج؛ لأنها بذلك تخون الشروط التي استسلم الرجل بموجبها؛ ولأن سلوكها يخيف الرجال الآخرين من القيام باستسلام مماثل، فإنه يعرض رفاه جميع أخواتها للخطر. بل وأكثر من ذلك؛ هذا الخداع والانتهاك الفظ للعهد هو جريمة يعاقب عليها بفقدان الشرف الشخصي والمدني. لهذا السبب نقلل من خزي الفتاة، ولكن ليس الزوجة؛ لأن في الحالة الأولى، يمكن للزواج أن يعيد الشرف، بينما في الحالة الثانية، لا يمكن التكفير عن انتهاك العقد.

بمجرد الاعتراف بأن الروح الجماعية هي أساس الشرف الأنثوي، ورؤيتها كترتيب صحي، بل وضروري، كمسألة حكمة ومصلحة، سيتم الاعتراف بأهميتها القصوى لرفاه النساء. لكنها لا تمتلك أي قيمة أكثر من كونها نسبية. إنها ليست غاية مطلقة، تتجاوز جميع أهداف الوجود الأخرى وتُقدر فوق الحياة نفسها. في هذا السياق، لن يكون هناك شيء يستحق الثناء في السلوك القسري والمبالغ فيه لامرأة مثل لوكريتيا أو فيرجينيوس—سلوك يمكن أن يتحول بسهولة إلى مهزلة مأساوية، ويولد شعوراً رهيباً بالاشمئزاز. على سبيل المثال، يجعل ختام "إميليا جالوتي" المرء يغادر

المسرح بشعور من عدم الارتياح التام؛ ومن ناحية أخرى، لا يمكن لجميع قواعد الشرف الأنثوي منع تعاطف معين مع كلارا في "إغمونت". إن المبالغة في تطبيق مبدأ الشرف الأنثوي تعني نسيان الغاية في التفكير في الوسائل—وهذا ما يفعله الناس غالباً؛ لأن مثل هذا التضخيم يوحي بأن قيمة الشرف الجنسي مطلقة؛ بينما الحقيقة هي أنها أكثر نسبية من أي نوع آخر. يمكن للمرء أن يذهب إلى حد القول بأن قيمتها تقليدية بحتة، عندما يرى من خلال توماسياس كيف أنه في جميع العصور والبلدان، حتى وقت الإصلاح، كانت الانحرافات مسموح بها ومعترف بها قانونياً، دون انتقاص من الشرف الأنثوي—دون أن نذكر معبد ميليتا في بابل.

هناك بالطبع ظروف معينة في الحياة المدنية تجعل من أشكال الزواج الخارجية أمراً مستحيلاً، خاصة في البلدان الكاثوليكية حيث لا يوجد شيء مثل الطلاق. في رأيي، سيكون من الأفضل للأمراء الحاكمين في كل مكان، من الناحية الأخلاقية، التخلي عن الأشكال تماماً بدلاً من عقد زواج مورغاني، حيث قد يطالب أحفاد هذا الزواج بالعرش إذا انقرض النسل الشرعي؛ مما يعني أن هناك احتمالاً، وإن كان بعيداً، أن يؤدي زواج مورغاني إلى حرب أهلية .بالإضافة إلى ذلك، فإن مثل هذا الزواج، الذي يتم في تحدٍ لجميع المراسم الخارجية، هو تنازل يُقدَّم للنساء والكهنة - وهما فئتان من الأشخاص يجب أن نكون حذرين في منحهم أقل قدر ممكن من الحرية.

يجب أن نلاحظ أيضاً أن كل رجل في بلد ما يمكنه الزواج من المرأة التي يختارها، باستثناء فرد واحد فقير، وهو الأمير. يده تنتمي إلى بلده، ولا يمكن أن تُعطى في الزواج إلا لأسباب تتعلق بالدولة، أي من أجل مصلحة البلد .ومع ذلك، فهو إنسان؛ وكإنسان، يحب أن يتبع قلبه. إنه أمر غير عادل وغير ممتن ومتعجرف أن نمنع، أو نرغب في منع، الأمير من اتباع ميوله في هذا الأمر؛ بالطبع، طالما أن السيدة ليس لها تأثير على حكومة البلد. من وجهة نظرها، تحتل السيدة مكانة استثنائية، ولا تخضع للقواعد العادية للشرف الجنسي؛ لأنها ببساطة أعطت نفسها لرجل يحبها، وهي

تحبه ولكن لا يمكنها الزواج منه. وبشكل عام، يُظهر مبدأ الشرف الأنثوي أنه ليس له أصل في الطبيعة، من خلال العديد من التضحيات الدموية التي قُدمت له - قتل الأطفال وانتحار الأم. لا شك أن الفتاة التي تخالف هذا القانون ترتكب خيانة ضد جنسها كله؛ لكن هذا الإيمان هو الذي يُفترض سراً وليس مُعلناً. وبما أن آفاقها الخاصة تعاني في معظم الحالات بشكل مباشر، فإن حماقتها أكبر بكثير من جريمتها.

الفضيلة المقابلة في الرجال هي نتاج ما كنت أناقشه. إنها روح الفريق لديهم، التي تطالب بأنه بمجرد أن يقدم الرجل نفسه في الزواج، وهو أمر مفيد للغاية لمنتصره، يجب أن يحرص على أن شروط المعاهدة تُحترم؛ وذلك لضمان أن الاتفاقية نفسها لا تفقد قوتها من خلال السماح بأي تراخٍ في مراعاتها، وأن الرجال، بعد أن قدموا كل شيء، يمكنهم على الأقل أن يكونوا مطمئنين إلى صفقتهم، وهي الحيازة الحصرية. وفقاً لذلك، فإن جزءاً من شرف الرجل هو أن يستاء من خرق رباط الزواج من قبل زوجته، وأن يعاقبها، على الأقل بالانفصال عنها. إذا غفر لها الجريمة، فإن زملاءه يصرخون بالخزي عليه؛ لكن العار في هذه الحالة ليس فظيعاً مثل عار المرأة التي فقدت شرفها؛ البقعة ليست عميقةlevioris notae macula - ؛ لأن علاقة الرجل بالمرأة تخضع للعديد من الأمور الأخرى الأكثر أهمية في حياته. تناول كل من الشاعرين الدراميين العظيمين في العصر الحديث شرف الرجل كموضوع لمسرحيتين؛ شكسبير في عطيل وحكاية الشتاء، وكالديرون في الطبيب بشرفه، ولإهانة سرية انتقام سري. يجب أن يُقال، مع ذلك، أن الشرف يطالب بمعاقبة الزوجة فقط؛ معاقبة عشيقها أيضاً هو عمل زائد عن الحاجة. هذا يؤكد وجهة نظري بأن شرف الرجل ينشأ من روح الفريق.

النوع من الشرف الذي كنت أناقشه حتى الآن كان موجوداً دائماً بأشكاله ومبادئه المختلفة بين جميع الأمم وفي جميع الأوقات؛ على الرغم من أن تاريخ الشرف الأنثوي يظهر أن مبادئه قد خضعت لتعديلات محلية معينة في فترات مختلفة. ولكن

هناك نوع آخر من الشرف يختلف تماماً عن هذا، نوع من الشرف لم يكن لدى الإغريق والرومان أي تصور عنه، وحتى يومنا هذا هو غير معروف تماماً بين الصينيين والهنود والمسلمين. إنه نوع من الشرف الذي نشأ فقط في العصور الوسطى، وهو محلي فقط في أوروبا المسيحية، بل، في جزء صغير جداً من السكان، أي الطبقات العليا من المجتمع ومن يحاكيهم. إنه شرف الفروسية، أو "نقطة الشرف". مبادئه مختلفة تماماً عن تلك التي تقوم عليها أنواع الشرف التي كنت أعالجها حتى الآن، وفي بعض النواحي تتعارض معها. النوع الذي أشير إليه ينتج الفارس؛ بينما النوع الآخر يخلق الرجل الشريف. وبما أن هذا هو الحال، سأقوم بشرح مبادئه، كنوع من القانون أو مرآة للأدب الفروسي.

1. بادئ ذي بدء، يتكون الشرف من هذا النوع، ليس في رأي الآخرين حول قيمتنا، بل بالكامل في ما إذا كانوا يعبرون عنه أم لا، بغض النظر عما إذا كان لديهم رأي فعلاً أم لا، ناهيك عن ما إذا كانوا يعرفون أسباباً لامتلاك واحد. قد يحمل الآخرون أسوأ رأي عنا نتيجة لما نفعله، وقد يحتقروننا بقدر ما يشاؤون؛ طالما لا يجرؤ أحد على التعبير عن رأيه، يبقى شرفنا غير ملوث . لذلك إذا كانت أفعالنا وصفاتنا تجبر الآخرين على احترامنا بأعلى درجة، وليس لديهم خيار سوى تقديم هذا الاحترام، - بمجرد أن ينطق أي شخص، مهما كان شريراً أو أحمقاً، بشيء يقلل من شأننا، يتعرض شرفنا للإهانة، بل، يختفي إلى الأبد، ما لم نتمكن من استعادته. دليل زائد على ما أقول، وهو أن شرف الفروسية يعتمد، ليس على ما يعتقده الناس، بل على ما يقولونه، يتجلى في حقيقة أن الإهانات يمكن سحبها، أو إذا لزم الأمر، تكون موضوع اعتذار، مما يجعلها كما لو لم تُنطق أبداً. سواء تم تصحيح الرأي الذي كان وراء التعبير أم لا، ولماذا تم استخدام التعبير في المقام الأول، هي أسئلة غير مهمة تماماً: طالما تم سحب البيان، كل شيء على ما يرام. الحقيقة هي أن هذا السلوك يهدف، ليس إلى كسب الاحترام، بل إلى انتزاعه.

ثانياً، يعتمد هذا النوع من الشرف، ليس على ما يفعله الرجل، بل على ما يعانيه، والعقبات التي يواجهها؛ فهو يختلف عن الشرف الذي يسود في كل شيء آخر، في كونه لا يعتمد على ما يقوله أو يفعله الشخص نفسه، بل على ما يقوله أو يفعله شخص آخر. وبالتالي، فإن شرفه يكون تحت رحمة كل من يمكنه التحدث عنه بسوء؛ وإذا هاجمه أحدهم، يختفي شرفه في لحظة إلى الأبد، ما لم يتمكن الشخص الذي تعرض للهجوم من استعادته بعملية سأذكرها لاحقاً، وهي عملية تنطوي على خطر على حياته وصحته وحريته وممتلكاته وسلامة عقله. قد يكون سلوك الرجل بأكمله متوافقاً مع أسمى المبادئ وأكثرها نبلاً، وقد تكون روحه أنقى ما يكون، وعقله من أعلى المستويات؛ ومع ذلك، قد يختفي شرفه في اللحظة التي يقرر فيها أي شخص إهانته، أي شخص على الإطلاق لم يخالف هذا الكود من الشرف بنفسه، سواء كان أسوأ وغد أو أحمق، عاطلاً، مقامراً، مديناً، شخصاً، باختصار، لا قيمة له على الإطلاق. عادةً ما يكون هذا النوع من الأشخاص هو الذي يحب إهانة الآخرين؛ لأن، كما يلاحظ سينيكا بحق، "كلما كان الشخص أكثر احتقاراً وسخرية، كان أكثر استعداداً بلسانه". تكون إهاناته موجهة غالباً ضد النوع الذي وصفته، لأن الأشخاص ذوي الأذواق المختلفة لا يمكن أن يكونوا أصدقاء، ورؤية الجدارة الفائقة تثير غضب الشخص الفاشل سراً. ما يقوله غوته في "الديوان الغربي الشرقي" صحيح تماماً، وهو أنه من غير المجدي الشكوى من أعدائك؛ لأنهم لا يمكن أن يصبحوا أصدقاءك أبداً، إذا كان وجودك كله يمثل توبيخاً دائماً لهم:

" لماذا تشتكي من الأعداء؟ هل يمكن أن يصبح هؤلاء أصدقاءً يوماً ما، الذين يعتبرون وجودك، كما أنت، توبيخاً أبدياً لهم في صمت؟"

من الواضح أن الأشخاص من هذا النوع البائس لديهم سبب وجيه ليكونوا ممتنين لمبدأ الشرف، لأنه يضعهم على مستوى مع الأشخاص الذين يتفوقون عليهم في كل جانب آخر. إذا أحب شخص ما إهانة أي شخص، ونسب إليه، على سبيل المثال،

صفة سيئة، فإن هذا يُعتبر في البداية رأياً مبرراً، صحيحاً في الواقع؛ حكماً، كما كان، بكل قوة القانون؛ بل، إذا لم يتم محوه فوراً بالدم، فإنه حكم يبقى صالحاً وسارياً إلى الأبد. بعبارة أخرى، يبقى الشخص الذي تعرض للإهانة - في أعين جميع الأشخاص الشرفاء - ما وصفه به الشخص الذي أطلق الإهانة، حتى لو كان أسوأ وغد على وجه الأرض؛ لأنه تحمل الإهانة - المصطلح الفني، أعتقد. وفقاً لذلك، لن يتعامل معه جميع الأشخاص الشرفاء بعد الآن، ويعاملونه كالأبرص، وقد يرفضون الدخول في أي مجتمع حيث يمكن العثور عليه، وهكذا.

يمكن تتبع هذا الإجراء الحكيم إلى العصور الوسطى، حتى القرن الخامس عشر، حيث لم يكن على المدعي في أي عملية جنائية إثبات ذنب المتهم، بل كان على المتهم إثبات براءته. كان بإمكانه القيام بذلك عن طريق القسم بأنه غير مذنب؛ وكان على داعميه، الذين يُطلق عليهم "المؤيدين"، أن يأتوا ويقسموا بأنهم يعتقدون أنه غير قادر على الحنث باليمين. إذا لم يتمكن من العثور على أحد لمساعدته بهذه الطريقة، أو اعترض المدعي على داعميه، كان يتم اللجوء إلى المحاكمة بحكم الله، والتي كانت تعني عادةً المبارزة. لأن المتهم كان الآن في حالة عار، وكان عليه أن يبرئ نفسه. هنا، إذن، يكمن أصل مفهوم العار، ونظام الشرف الذي يسود الآن بين الناس الشرفاء - فقط بدون القسم .هذا يفسر أيضًا الشعور العميق بالغضب الذي يُطلب من الناس الشرفاء إظهاره إذا تم اتهامهم بالكذب؛ إنه عار يقولون إنه يجب محوه بالدم. نادرًا ما يصل الأمر إلى هذا الحد، على الرغم من أن الأكاذيب شائعة؛ ولكن في إنجلترا، أكثر من أي مكان آخر، هي خرافة متجذرة بعمق. كمسألة ترتيب، يجب على الرجل الذي يهدد بقتل آخر بسبب كذبة ألا يكون قد كذب بنفسه. الحقيقة هي أن المحاكمة الجنائية في العصور الوسطى كانت تقبل أيضًا شكلًا أقصر. في الرد على التهمة، كان المتهم يجيب: "هذا كذب"؛ ومن ثم كان يُترك الأمر ليُحسم بحكم الله. ومن هنا، فإن قانون الشرف الفروسي ينص على أنه عندما يُتهم بالكذب، يتبع ذلك اللجوء إلى السلاح كأمر طبيعي. هذا هو إذن، نظرية الإهانة.

لكن هناك شيء أسوأ من الإهانة، شيء مروع لدرجة أنني أعتذر لجميع الناس الشرفاء لمجرد ذكره في هذا القانون الفروسي؛ لأنني أعلم أنهم سيرتجفون، وستقف شعورهم عند مجرد التفكير فيه - الشر الأعظم، أسوأ شر على وجه الأرض، أسوأ من الموت واللعنة. قد يعطي الرجل الآخر - يا له من أمر مروع! - صفعة أو ضربة. هذا شيء فظيع للغاية، ومدمر تمامًا لكل شرف، بحيث أنه بينما يمكن شفاء أي نوع آخر من الإهانة بإراقة الدماء، يمكن علاج هذا فقط بالضربة القاضية.

ثالثًا، هذا النوع من الشرف ليس له علاقة بما قد يكون عليه الرجل في ذاته؛ أو، مرة أخرى، بالسؤال عما إذا كان يمكن لشخصيته الأخلاقية أن تتحسن أو تسوء، وكل هذه الاستفسارات البيداغوجية. إذا تعرض شرفك للهجوم، أو بدا أنه قد ذهب، يمكن استعادته بالكامل بسرعة إذا كنت سريعًا بما يكفي في اللجوء إلى العلاج العالمي - المبارزة. ولكن إذا كان المعتدي لا ينتمي إلى الفئات التي تعترف بقانون الشرف الفروسي، أو كان قد أساء إليه مرة واحدة، فهناك طريقة أكثر أمانًا لمواجهة أي هجوم على شرفك، سواء كان يتكون من ضربات، أو مجرد كلمات. إذا كنت مسلحًا، يمكنك إسقاط خصمك على الفور، أو ربما بعد ساعة. هذا سيعيد شرفك.

ولكن إذا كنت ترغب في تجنب مثل هذه الخطوة القصوى، خوفًا من أي عواقب غير سارة قد تنشأ عنها، أو من عدم اليقين بشأن ما إذا كان المعتدي يخضع لقوانين الشرف الفروسي أم لا، هناك وسيلة أخرى لتحسين موقفك، وهي "الأفانتاج". يتضمن ذلك الرد على الوقاحة بوقاحة أكبر؛ وإذا لم تكن الإهانات مجدية، يمكنك تجربة الضرب، الذي يشكل نوعًا من الذروة في استعادة شرفك؛ على سبيل المثال، يمكن علاج صفعة على الوجه بضربة بعصا، وضربة بعصا بضرب مبرح بسوط الخيل؛ وكعلاج معتمد لهذا الأخير، يوصي البعض بالبصق على خصمك. إذا لم تكن كل هذه الوسائل مجدية، فلا يجب أن تتردد في إراقة الدماء .والسبب في هذه الأساليب لمحو الإهانة هو، في هذا القانون، كما يلي:

)ملاحظة المترجم: يجب أن تتذكر أن شوبنهاور هنا يصف، أو ربما يسخر من عادات وتقاليد الأرستقراطية الألمانية قبل نصف قرن. الآن، بالطبع، تغير كل ذلك(!

(.4)تلقي الإهانة أمر مشين؛ تقديمها، شرف. دعني أقدم مثالاً. خصمي لديه الحقيقة والحق والعقل إلى جانبه. حسنًا. أهينه. عندئذٍ تتركه الحقيقة والشرف وتأتي إليّ، ولحين استعادتهما، يكون قد فقدهما - ليس بممارسة الحق أو العقل، بل بإطلاق النار وطعني. وبالتالي، الوقاحة هي صفة تعتبر، من حيث الشرف، بديلاً لأي صفة أخرى وتفوقها جميعًا. الوقح دائمًا على حق. ماذا تريد أكثر من ذلك؟ مهما كان الرجل غبيًا أو سيئًا أو شريرًا، إذا كان فقط وقحًا بالإضافة إلى ذلك، فإنه يغفر ويشرع جميع أخطائه. إذا أظهر شخص آخر في أي نقاش أو محادثة معرفة أكبر، أو حبًا أكبر للحقيقة، أو حكمًا أفضل، أو فهمًا أفضل منا، أو أظهر عمومًا صفات فكرية تلقي بظلالها على صفاتنا، يمكننا على الفور إلغاء تفوقه وسطحيتنا، ونكون متفوقين عليه بدورنا، بأن نكون مهينين وعدوانيين. لأن الوقاحة أفضل من أي حجة؛ إنها تطغى تمامًا على العقل. إذا لم يهتم خصمنا بأسلوب هجومنا، ولم يرد بوقاحة أكبر، بحيث يغرقنا في المنافسة الدنيئة للأفانتاج، فنحن المنتصرون والشرف في جانبنا .الحقيقة، المعرفة، الفهم، الذكاء، والفطنة، يجب أن تتراجع وتترك المجال لهذه الوقاحة المطلقة.

الناس الشرفاء يظهرون فورًا استعدادهم للقتال إذا أبدى أحدهم رأيًا مخالفًا لرأيهم، أو أظهر ذكاءً أكثر مما يستطيعون جمعه؛ وإذا فقدوا الرد في أي جدال، يبحثون عن سلاح الوقاحة، الذي سيخدمهم جيدًا ويكون في متناول اليد؛ فيتراجعون وهم سادة الموقف. يجب أن يكون واضحًا الآن أن الناس على حق في التصفيق لهذا المبدأ من الشرف باعتباره قد نبّل نغمة المجتمع. هذا المبدأ ينبع من آخر، يشكل قلب وروح القانون بأكمله.

(5.)خامساً، يشير القانون إلى أن أعلى محكمة يمكن للرجل أن يلجأ إليها في أي خلاف قد يكون لديه مع آخر بشأن نقطة شرف هي محكمة القوة البدنية، أي الوحشية. كل قطعة من الوقاحة هي، بدقة، نداء إلى الوحشية؛ لأنها إعلان بأن القوة الفكرية والبصيرة الأخلاقية غير قادرتين على اتخاذ القرار، وأن المعركة يجب أن تُحسم بالقوة البدنية - صراع يُحسم، في حالة الإنسان، الذي يعرفه فرانكلين بأنه حيوان يصنع الأدوات، بالأسلحة الخاصة بالنوع؛ والقرار لا رجعة فيه. هذا هو المبدأ المعروف بحق القوة - سخرية، بالطبع، مثل ذكاء الأحمق، عبارة موازية. يمكن أن يُطلق على شرف الفارس مجد القوة.

(6.)أخيراً، إذا كان الشرف المدني، كما رأينا أعلاه، دقيقاً جداً في مسألة "ملكي" و"ملكك"، ويولي احتراماً كبيراً للالتزامات والوعد الذي يُقطع، فإن القانون الذي نناقشه هنا يعرض، من ناحية أخرى، أسمى درجات السخاء. هناك كلمة واحدة فقط لا يمكن كسرها، وهي كلمة الشرف - على شرفي، كما يقول الناس - والافتراض هو، بالطبع، أن كل شكل آخر من الوعد يمكن كسره .بل، إذا ساءت الأمور إلى أسوأ حال، فمن السهل كسر حتى كلمة الشرف، والبقاء شريفاً - مرة أخرى بتبني العلاج العالمي، المبارزة، والقتال مع أولئك الذين يصرون على أننا قطعنا وعداً. علاوة على ذلك، هناك دين واحد، ولا غيره، يجب تحت أي ظرف من الظروف أن يُترك غير مدفوع - دين القمار، الذي يُطلق عليه بالتالي دين الشرف. في جميع أنواع الديون الأخرى يمكنك خداع اليهود والمسيحيين كما تشاء؛ ويبقى شرفك الفروسي دون شائبة.

سيرى القارئ غير المتحيز على الفور أن مثل هذا القانون الغريب والوحشي والسخيف للشرف ليس له أساس في الطبيعة البشرية، ولا أي مبرر في نظرة صحية للشؤون الإنسانية. إن النطاق الضيق للغاية لعمله يخدم فقط لتكثيف الشعور، الذي يقتصر حصرياً على أوروبا منذ العصور الوسطى، ثم فقط على الطبقات العليا،

الضباط والجنود، والأشخاص الذين يقلدونهم. لم يعرف الإغريق ولا الرومان أي شيء عن هذا القانون للشرف أو مبادئه؛ ولا الأمم المتحضرة للغاية في آسيا، القديمة أو الحديثة. بينهم لا يُعترف بأي نوع آخر من الشرف سوى ذلك الذي ناقشته أولاً، والذي بموجبه يكون الرجل ما يظهره من خلال أفعاله، وليس ما يقوله أي لسان متحرك عنه. كانوا يعتقدون أن ما يقوله أو يفعله الرجل قد يؤثر ربما على شرفه الخاص، ولكن ليس على شرف أي رجل آخر. بالنسبة لهم، كانت الضربة مجرد ضربة - وأي حصان أو حمار يمكن أن يعطي ضربة أقوى - ضربة قد تجعل الرجل غاضباً وتطلب الانتقام الفوري في ظل ظروف معينة؛ لكنها لم تكن لها علاقة بالشرف. لم يحتفظ أحد بحساب الضربات أو الكلمات المهينة، أو الرضا الذي طُلب أو لم يُطلب. ومع ذلك، في الشجاعة الشخصية واحتقار الموت، لم يكن القدماء بالتأكيد أقل من أمم أوروبا المسيحية. كان الإغريق والرومان أبطالاً حقيقيين، إذا شئت؛ لكنهم لم يعرفوا شيئاً عن نقطة الشرف .إذا كان لديهم أي فكرة عن المبارزة، فقد كانت غير مرتبطة تماماً بحياة النبلاء؛ كانت مجرد عرض للمصارعين المرتزقة، العبيد المكرسين للذبح، المجرمين المدانين، الذين كانوا يتناوبون مع الوحوش البرية، ليذبحوا بعضهم البعض لجعل العيد الروماني. عندما تم إدخال المسيحية، تم إلغاء عروض المصارعين، وحلت محلها في العصور المسيحية المبارزة، التي كانت وسيلة لحل الصعوبات بحكم الله.

إذا كانت معركة المصارعين تضحية قاسية للرغبة السائدة في العروض الكبيرة، فإن المبارزة هي تضحية قاسية للتحيزات القائمة - تضحية، ليس بالمجرمين والعبيد والسجناء، بل بالنبلاء والأحرار.

)ملاحظة المترجم: هذه الملاحظات وغيرها عن المبارزة قد تبدو متأخرة للقراء الإنجليز؛ لكنها لم تصبح قديمة بعد في معظم أنحاء القارة(.

هناك العديد من السمات في شخصية القدماء التي تظهر أنهم كانوا خالين تمامًا من هذه التحيزات. عندما، على سبيل المثال، استدعى زعيم توتوني ماريوس إلى مبارزة، أجاب ماريوس بأنه إذا كان الزعيم متعبًا من حياته، فيمكنه أن يذهب ويشنق نفسه؛ وفي نفس الوقت عرض عليه مصارعًا قديمًا لجولة أو اثنتين. يروي بلوتارخ في حياة ثيميستوكليس أن يوربياديس، الذي كان يقود الأسطول، رفع عصاه مرة ليضربه؛ عندها قال ثيميستوكليس، بدلاً من سحب سيفه :اضرب، لكن اسمعني. كم سيكون القارئ آسفًا، إذا كان رجل شريف، ليجد أننا ليس لدينا معلومات تفيد بأن الضباط الأثينيين رفضوا جميعًا الخدمة تحت قيادة ثيميستوكليس إذا تصرف بهذه الطريقة! هناك كاتب فرنسي حديث يعلن أنه إذا اعتبر أي شخص ديموستينيس رجل شرف، فإن جهله سيثير ابتسامة شفقة؛ وأن شيشرون لم يكن رجل شرف أيضًا! في مقطع معين في قوانين أفلاطون، يتحدث الفيلسوف مطولاً عن الاعتداء، مما يظهر لنا بوضوح أن القدماء لم يكن لديهم أي فكرة عن أي شعور بالشرف فيما يتعلق بهذه الأمور. كانت مناقشات سقراط المتكررة غالبًا ما تتبعها معاملته بقسوة، وكان يتحملها جميعًا بلطف. مرة، على سبيل المثال، عندما ركله شخص ما، فوجئ أحد أصدقائه بالصبر الذي تحمل به الإهانة .قال سقراط: هل تعتقد أنه إذا حدث أن ركلني حمار، سأستاء؟ في مناسبة أخرى، عندما سئل: ألم يسيء إليك هذا الرجل ويهينك؟ أجاب: لا، ما يقوله ليس موجهاً لي. حفظ ستوبايوس مقطعًا طويلًا من موسونيوس، يمكننا من خلاله أن نرى كيف تعامل القدماء مع الإهانات. لم يعرفوا أي شكل آخر من أشكال الرضا سوى ما توفره القانون، وكان الحكماء يحتقرون حتى هذا. إذا تلقى يوناني صفعة على الوجه، يمكنه الحصول على الرضا بمساعدة القانون؛ كما هو واضح من جورجياس أفلاطون، حيث يمكن العثور على رأي سقراط. يمكن رؤية الشيء نفسه في الحساب الذي قدمه جيليوس عن لوسيوس فيراتيوس، الذي كان لديه الجرأة لإعطاء بعض المواطنين الرومان الذين قابلهم على الطريق صفعة على الوجه، دون أي استفزاز على الإطلاق؛ ولكن لتجنب أي عواقب لاحقة، أمر عبداً بإحضار كيس

من النقود الصغيرة، وعلى الفور دفع العقوبة القانونية التافهة للرجال الذين أدهشهم بسلوكه.

كراتيس، الفيلسوف الكلبي الشهير، تلقى صفعة قوية على أذنه من نيكودرموس، الموسيقي، مما أدى إلى تورم وجهه وتحوله إلى اللونين الأسود والأزرق .عندها وضع كراتيس لافتة على جبهته كتب عليها "نيكودرموس فعلها"، مما جلب الكثير من العار لعازف الفلوت الذي ارتكب هذا الفعل الوحشي ضد الرجل الذي كانت أثينا كلها تكرمه كإله منزلي. وفي رسالة إلى ميليسيوس، يخبرنا ديوجينيس السينوبي أنه تعرض للضرب من أبناء الأثينيين السكارى؛ لكنه أضاف أن الأمر لم يكن ذا أهمية.

يخصص سينيكا الفصول الأخيرة من كتابه "عن الثبات" لمناقشة طويلة حول الإهانة، ليظهر أن الرجل الحكيم لن يعيرها أي اهتمام. في الفصل الرابع عشر، يقول: "ماذا يفعل الرجل الحكيم إذا تلقى ضربة؟ ما فعله كاتو عندما ضربه أحدهم على فمه؛ لم يغضب أو ينتقم من الإهانة، أو حتى يرد الضربة، بل تجاهلها ببساطة".

نعم، تقولون، لكن هؤلاء الرجال كانوا فلاسفة. وأنتم أغبياء، أليس كذلك؟ بالضبط.

من الواضح أن كامل قانون الشرف الفروسي كان مجهولاً تماماً لدى القدماء؛ لأنهم كانوا دائماً ينظرون إلى الأمور البشرية بشكل طبيعي وغير متحيز، ولم يسمحوا لأنفسهم بأن يتأثروا بأي حماقة شريرة ومقيتة. كانت الضربة على الوجه بالنسبة لهم مجرد ضربة ولا شيء أكثر، إصابة جسدية تافهة؛ بينما يجعلها المعاصرون كارثة، موضوعاً لمأساة؛ كما في "السيد" لكورني، أو في كوميديا ألمانية حديثة عن الحياة الطبقية الوسطى، بعنوان "قوة الظروف"، والتي كان يجب أن تُسمى "قوة التحيز". إذا تلقى عضو في الجمعية الوطنية في باريس صفعة على الأذن، فإنها ستتردد من طرف أوروبا إلى الآخر. الأمثلة التي قدمتها عن الطريقة التي كان يمكن أن يُعامل بها مثل هذا الحدث في العصور الكلاسيكية قد لا تناسب أفكار الناس الشرفاء؛ لذا دعوني

أوصيهم، كنوع من الترياق، بقصة السيد ديسجلاند في تحفة ديدرو، "جاك القدري". إنها نموذج ممتاز للشرف الفروسي الحديث، الذي بلا شك سيجدونه ممتعاً ومفيداً.

من الواضح مما قلته أن مبدأ الشرف الفروسي ليس له أصل جوهري وعفوي في الطبيعة البشرية. إنه منتج صناعي، ومصدره ليس صعباً العثور عليه. وجوده يعود بوضوح إلى الوقت الذي كان الناس يستخدمون فيه قبضاتهم أكثر من عقولهم، عندما كانت الكهنوتية قد قيدت العقل البشري، في العصور الوسطى التي تمجدت كثيراً، بنظامها الفروسي. كان ذلك الوقت عندما كان الناس يتركون الله ليس فقط ليعتني بهم بل ليحكم عليهم أيضاً؛ عندما كانت القضايا الصعبة تُحسم عن طريق المحاكمة، حكم الله؛ الذي، مع بعض الاستثناءات، كان يعني مبارزة، ليس فقط بين النبلاء، بل في حالة المواطنين العاديين أيضاً. هناك مثال جيد على ذلك في مسرحية شكسبير "هنري السادس". كل حكم قضائي كان خاضعاً لاستئناف إلى السلاح - محكمة، كما كانت، من الدرجة الأعلى، وهي حكم الله: وهذا يعني حقاً أن القوة البدنية والنشاط، أي طبيعتنا الحيوانية، اغتصبت مكان العقل في مقعد الحكم، لتقرر في مسائل الحق والباطل، ليس بناءً على ما فعله الرجل، بل بالقوة التي كان يعارض بها، نفس النظام، في الواقع، الذي يسود اليوم تحت مبادئ الشرف الفروسي. إذا شك أحد في أن هذا هو حقاً أصل مبارزتنا الحديثة، فليقرأ عملاً ممتازاً لج.ب. ميلينجن، "تاريخ المبارزة". بل قد تجد بين مؤيدي النظام - الذين، بالمناسبة، ليسوا عادةً الأكثر تعليماً أو تفكيراً - بعض من يرون أن نتيجة المبارزة تشكل حقاً حكماً إلهياً في المسألة المتنازع عليها؛ بلا شك نتيجة للشعور التقليدي حول الموضوع.

ولكن بغض النظر عن مسألة الأصل، يجب أن يكون واضحاً لنا الآن أن الاتجاه الرئيسي للمبدأ هو استخدام التهديد البدني لغرض انتزاع مظهر من الاحترام الذي يُعتبر صعباً جداً أو زائداً عن الحاجة للحصول عليه في الواقع؛ إجراء يشبه إلى حد كبير إثبات دفء غرفتك بوضع يدك على مقياس الحرارة وجعله يرتفع .في الواقع، جوهر

المسألة هو هذا: بينما يهدف الشرف المدني إلى التفاعل السلمي، ويتكون من رأي الآخرين بأننا نستحق الثقة الكاملة، لأننا نحترم حقوقهم دون قيد أو شرط؛ الشرف الفروسي، من ناحية أخرى، ينص على أننا يجب أن نكون مخيفين، لأننا مصممون على الحفاظ على حقوقنا بأي ثمن.

نظراً لأن الاعتماد على النزاهة البشرية ليس كبيراً، فإن المبدأ القائل بأنه من الأهم إثارة الخوف بدلاً من دعوة الثقة لن يكون، ربما، خاطئاً، إذا كنا نعيش في حالة طبيعية، حيث يجب على كل رجل أن يحمي نفسه ويحافظ على حقوقه مباشرة. ولكن في الحياة المدنية، حيث تتولى الدولة حماية شخصنا وممتلكاتنا، لم يعد المبدأ قابلاً للتطبيق: إنه يقف، مثل القلاع وأبراج المراقبة من العصر الذي كان فيه الحق للقوة، كائن عديم الفائدة ومهجور، وسط الحقول المزروعة جيداً والطرق المزدحمة، أو حتى السكك الحديدية.

وفقاً لما قلته، فإن تطبيق مبدأ الشرف الفروسي، الذي لا يزال يعترف بهذا المبدأ، يقتصر على تلك الحالات الصغيرة من الاعتداء الشخصي التي تتلقى عقوبة طفيفة من القانون، أو حتى لا تتلقى أي عقوبة على الإطلاق، بسبب تفاهتها. نتيجة لهذا التطبيق المحدود للمبدأ، فإنه قد فرض احتراماً مبالغاً فيه لقيمة الشخص، وهو احترام غريب تماماً عن طبيعة الإنسان وتكوينه ومصيره، وقد رفعه إلى نوع من القداسة. وبما أنه يعتبر أن الدولة قد فرضت عقوبة غير كافية على ارتكاب مثل هذه الإصابات التافهة، فإنه يتولى بنفسه معاقبة المعتدي بمهاجمته في حياته أو أطرافه. كل هذا يعتمد بوضوح على درجة مفرطة من الكبرياء المتغطرس، الذي ينسى تماماً ما هو الإنسان حقاً، ويدعي أنه يجب أن يكون خالياً تماماً من أي هجوم أو حتى نقد. أولئك الذين يقررون تنفيذ هذا المبدأ بالقوة، ويعلنون كقاعدة لهم: "من يهينني أو يضربني سيموت!" يجب أن يُنفوا من البلاد.

الشرف الفروسي هو ابن الكبرياء والحماقة، وليس الكبرياء، الذي هو إرث الجنس البشري. من اللافت للنظر أن هذا الشكل المتطرف من الكبرياء يوجد حصرياً بين أتباع الدين الذي يعلم أعمق درجات التواضع. ومع ذلك، يجب ألا يُعزى هذا الكبرياء إلى الدين، بل إلى النظام الإقطاعي، الذي جعل كل نبيل حاكماً صغيراً لا يعترف بأي قاضٍ بشري، وتعلم أن يعتبر شخصه مقدساً وغير قابل للانتهاك، وأي هجوم عليه، أو أي ضربة أو كلمة مهينة، جريمة يعاقب عليها بالموت. مبدأ الشرف الفروسي والمبارزة كانا في البداية محصورين على النبلاء، ولاحقاً أيضاً على الضباط في الجيش، الذين كانوا يتمتعون بعلاقة متقطعة مع الطبقات العليا، رغم أنهم لم يُدمجوا معهم أبداً، وكانوا حريصين على ألا يتخلفوا عنهم. صحيح أن المبارزات كانت نتاج المحاكمات القديمة؛ لكن الأخيرة ليست الأساس، بل نتيجة وتطبيق لمبدأ الشرف: الرجل الذي لا يعترف بأي قاضٍ بشري يلجأ إلى الإلهي. ومع ذلك، فإن المحاكمات ليست خاصة بالمسيحية: يمكن العثور عليها بقوة كبيرة بين الهنود، خاصة في العصور القديمة؛ وهناك آثار لها حتى الآن.

كعلاج لهذه الغطرسة الطائشة، يميل الناس إلى التنازل عن كل شيء. إذا التقى شخصان جريئان، ولم يتنازل أي منهما، فقد يتسبب أدنى اختلاف في سيل من الإهانات، ثم اللكمات، وأخيراً ضربة قاتلة: لذلك سيكون من الأجدر حقاً تجاوز الخطوات الوسيطة واللجوء إلى السلاح فوراً. اللجوء إلى السلاح له طقوسه الخاصة؛ وهذه الطقوس تطورت إلى نظام صارم ودقيق من القوانين واللوائح، معاً تشكل أروع مهزلة هناك - معبد شرف مخصص للحماقة! لأنه إذا تنازع شخصان جريئان على أمر تافه، (الأمور الأكثر أهمية تُعالج بالقانون)، فإن أحدهما، الأذكى بينهما، سيتنازل بالطبع؛ وسيتفقان على الاختلاف. أن هذا هو الحال يثبته حقيقة أن الناس العاديين - أو بالأحرى، الفئات العديدة من المجتمع التي لا تعترف بمبدأ الشرف الفروسي، تترك أي نزاع يسير في مساره الطبيعي. بين هذه الفئات، القتل نادر مئة

مرة أكثر من بين أولئك - وهم يشكلون، ربما، في المجمل، بالكاد واحداً من كل ألف - الذين يكرمون المبدأ :وحتى الضربات ليست متكررة جداً.

ثم قيل إن آداب ونبرة المجتمع الراقي تستند في النهاية إلى هذا المبدأ من الشرف، الذي، مع نظام المبارزات، يُعتبر حصناً ضد هجمات الوحشية والفظاظة. لكن أثينا وكورنث وروما كانت بالتأكيد تتباهى بمجتمع جيد، بل ممتاز، وآداب ونبرة عالية، دون أي دعم من شبح الشرف الفروسي. صحيح أن النساء لم يشغلن ذلك المكان البارز في المجتمع القديم الذي يشغلنه الآن، عندما أصبحت المحادثات تتسم بالطابع التافه والخفيف، على حساب تلك المناقشات الجادة التي ميزت القدماء.

هذا التغيير ساهم بالتأكيد بشكل كبير في إحداث الميل، الذي يمكن ملاحظته في المجتمع الراقي اليوم، لتفضيل الشجاعة الشخصية على امتلاك أي صفة أخرى . الحقيقة هي أن الشجاعة الشخصية هي فضيلة ثانوية جداً، مجرد علامة مميزة للضابط الصغير، فضيلة، في الواقع، نتفوق فيها على الحيوانات الدنيا؛ وإلا لما سمعت الناس يقولون، "شجاع كالأسد". بعيداً عن كونها عمود المجتمع، يوفر الشرف الفروسي ملاذاً آمناً، بشكل عام، لعدم الأمانة والشر، وأيضاً للصغائر من الوقاحات، وعدم الاعتبار، وسوء الأدب. غالباً ما يتم التغاضي عن السلوك الفظ لأن لا أحد يرغب في المخاطرة بحياته لتصحيحه.

بعد ما قلته، لن يبدو غريباً أن نظام المبارزات يُنفذ بأقصى درجات الحماس الدموي في تلك الأمة التي تظهر سجلاتها السياسية والمالية أنها ليست شريفة جداً. ما تكون عليه تلك الأمة في حياتها الخاصة والعائلية، هو سؤال يمكن طرحه بشكل أفضل على أولئك الذين لديهم خبرة في الأمر. لقد كانت حضارتهم وثقافتهم الاجتماعية غائبة منذ فترة طويلة.

لا يوجد إذن أي حقيقة في مثل هذه الذرائع. يمكن القول بعدل أكبر أنه كما، عندما تزمجر على كلب، يزمجر في المقابل، وعندما تدلله، يتودد؛ كذلك يكمن في طبيعة البشر الرد على العداء بالعداء، وأن يكونوا مريرين ومزعجين عند أي علامات على المعاملة المتدنية أو الكراهية: وكما يقول شيشرون، هناك شيء ما يخترق في سهم الحسد بحيث يجد حتى الرجال الحكماء وذوو القيمة جرحه مؤلماً؛ ولا يوجد في العالم، باستثناء ربما في بعض الطوائف الدينية، من يتلقى إهانة أو ضربة برباطة جأش. ومع ذلك، فإن النظرة الطبيعية لأي منهما لن تتطلب في أي حال أكثر من رد يتناسب مع الجريمة، ولن تصل إلى حد تعيين الموت كعقوبة مناسبة لأي شخص يتهم آخر بالكذب أو الغباء أو الجبن. النظرية الألمانية القديمة للدم مقابل الضربة هي خرافة مروعة من عصر الفروسية. وفي أي حال، فإن الرد أو الانتقام من الإهانة يمليه الغضب، وليس أي التزام بالشرف والواجب كما يسعى دعاة الفروسية إلى ربطه بها. الحقيقة هي أنه، كلما كانت الحقيقة أكبر، كان الافتراء أكبر؛ ومن الواضح أن أدنى تلميح لبعض الجريمة الحقيقية سيثير استياءً أكبر بكثير من اتهام رهيب تماماً لا أساس له: بحيث يمكن للرجل الذي هو متأكد تماماً من أنه لم يفعل شيئاً يستحق اللوم أن يعاملها بازدراء، وسيكون آمناً في القيام بذلك. تتطلب نظرية الشرف أن يظهر حساسية لا يمتلكها، وأن يأخذ انتقاماً دموياً للإهانات التي لا يمكنه الشعور بها. يجب أن يكون لدى الرجل رأي ضعيف جداً في قيمته الخاصة إذا سارع إلى منع التعبير عن رأي غير مواتٍ بإعطاء عدوه عيناً سوداء.

تقدير الشخص لقيمته الحقيقية يجعله غير مبالٍ بالإهانة؛ ولكن إذا لم يستطع منع نفسه من الشعور بالغضب، فإن القليل من الذكاء والثقافة سيمكنانه من الحفاظ على المظاهر وإخفاء غضبه. إذا تمكن فقط من التخلص من هذه الخرافة المتعلقة بالشرف - الفكرة التي تعني أنه يختفي عندما تتعرض للإهانة، ويمكن استعادته برد الإهانة؛ إذا استطعنا فقط إيقاف الناس عن التفكير بأن الخطأ والوحشية والوقاحة يمكن تقنينها بإظهار الاستعداد لتقديم الرضا، أي القتال للدفاع عنها، فسوف نتوصل

جميعًا قريبًا إلى الرأي العام بأن الإهانة والاستهانة تشبه معركة يفوز فيها الخاسر؛ وكما يقول فينتشنزو مونتي، فإن الإساءة تشبه موكب الكنيسة، لأنها دائمًا تعود إلى النقطة التي انطلقت منها. إذا استطعنا فقط جعل الناس ينظرون إلى الإهانة من هذا المنظور، فلن نضطر بعد الآن إلى قول شيء وقح لإثبات أننا على حق. الآن، للأسف، إذا أردنا أن نتناول أي مسألة بجدية، علينا أولاً أن نأخذ في الاعتبار ما إذا كانت ستسيء بطريقة أو بأخرى إلى الغبي، الذي يظهر عادةً القلق والغضب عند أدنى علامة على الذكاء؛ وقد يحدث بسهولة أن الرأس الذي يحتوي على الرأي الذكي يجب أن يتنافس مع الرأس الفارغ من كل شيء سوى الضيق والغباء. إذا تم التخلص من كل هذا، يمكن للتفوق الفكري أن يأخذ المكانة الرائدة في المجتمع التي يستحقها - مكانة تحتلها الآن، رغم أن الناس لا يحبون الاعتراف بذلك، من قبل التفوق البدني، مجرد الشجاعة القتالية، في الواقع؛ والتأثير الطبيعي لمثل هذا التغيير سيكون أن أفضل نوع من الناس سيكون لديهم سبب أقل للانسحاب من المجتمع. هذا سيمهد الطريق لإدخال المجاملة الحقيقية والمجتمع الجيد الحقيقي، كما كان موجودًا بلا شك في أثينا وكورنث وروما. إذا أراد أي شخص رؤية مثال جيد لما أعنيه، أود أن يقرأ مأدبة زينوفون.

الحجة الأخيرة للدفاع عن الشرف الفروسي بلا شك هي أنه، لولا وجوده، لكان العالم - فكرة مروعة! - مجرد حديقة دببة. وللرد بإيجاز، فإن تسعمائة وتسعة وتسعين شخصًا من كل ألف لا يعترفون بهذا القانون، غالبًا ما أعطوا وتلقوا ضربة دون أي عواقب قاتلة: في حين أن بين أتباع القانون، تعني الضربة عادةً الموت لأحد الطرفين. ولكن دعني أفحص هذه الحجة عن كثب.

لقد حاولت كثيرًا أن أجد أساسًا معقولًا أو على الأقل مقبولًا - غير الأساس التقليدي البحت - بعض الأسباب الإيجابية، لأقول، للقناعة الراسخة التي يحملها جزء من البشر، بأن الضربة شيء رهيب للغاية؛ لكنني بحثت عنها عبثًا، سواء في الجانب

الحيواني أو العقلاني من الطبيعة البشرية. الضربة هي، وستظل دائمًا، إصابة جسدية طفيفة يمكن أن يسببها شخص لآخر؛ مما يثبت بذلك فقط تفوقه في القوة أو المهارة، أو أن عدوه كان غير منتبه. التحليل لن يأخذنا أبعد من ذلك. نفس الفارس الذي يعتبر الضربة من يد الإنسان أعظم الشرور، إذا تلقى ضربة أقوى عشر مرات من حصانه، سيؤكد لك، وهو يعرج بعيدًا في ألم مكبوت، أنها مسألة لا أهمية لها على الإطلاق. لذا، أعتقد أن اليد البشرية هي أصل المشكلة. ومع ذلك، في المعركة، قد يتلقى الفارس جروحًا وطعنات من نفس اليد، ومع ذلك يؤكد لك أن جروحه لا تستحق الذكر. الآن، أسمع أن الضربة من الجانب المسطح للسيف ليست سيئة بأي حال من الأحوال مثل الضربة من العصا؛ وأنه، منذ وقت ليس ببعيد، كان يمكن معاقبة الطلاب بإحدى الطريقتين وليس الأخرى، وأن أعظم شرف على الإطلاق هو الوسام. هذا هو كل الأساس النفسي أو الأخلاقي الذي يمكنني العثور عليه؛ لذا، لا يبقى لي سوى أن أعلن أن الأمر كله خرافة قديمة متجذرة، ومثال آخر من العديد من الأمثلة التي تظهر قوة التقليد. تأكيدي على هذا الرأي يأتي من الحقيقة المعروفة جيدًا أن الضرب بالخيزران في الصين هو عقوبة شائعة جدًا لعامة الناس، وحتى للمسؤولين من كل الطبقات؛ مما يظهر أن الطبيعة البشرية، حتى في حالة حضارية عالية، لا تسير في نفس المسار هنا وفي الصين.

على العكس من ذلك، يظهر النظر غير المتحيز للطبيعة البشرية أنه من الطبيعي تمامًا أن يضرب الإنسان كما هو الحال بالنسبة للحيوانات المتوحشة التي تعض وتمزق، أو بالنسبة للحيوانات ذات القرون التي تنطح أو تدفع. يمكن القول إن الإنسان هو الحيوان الذي يضرب. ومن ثم، فإن سماع أن شخصًا عض شخصًا آخر يبدو لنا غير مناسب، بينما من الطبيعي واليومي أن يتلقى أو يعطي الضربات. من المفهوم تمامًا أنه، مع تقدمنا في التعليم، نكون سعداء بالاستغناء عن الضربات بنظام من الضبط المتبادل. ولكن من القسوة إجبار أمة أو طبقة واحدة على اعتبار الضربة مصيبة رهيبة يجب أن تكون لها عواقب الموت والقتل. هناك الكثير من

الشرور الحقيقية في العالم للسماح لنا بزيادتها بمصائب وهمية، مما يجلب معها مصائب حقيقية؛ ومع ذلك، هذا هو التأثير الدقيق للخرافة، التي تثبت نفسها في نفس الوقت غبية وخبيثة.

لا يبدو لي من الحكمة أن تحاول الحكومات والهيئات التشريعية إلغاء الجلد كعقوبة في الحياة المدنية أو العسكرية. يعتقدون أنهم يتصرفون لمصلحة الإنسانية، لكن في الواقع، يفعلون العكس تماماً؛ لأن إلغاء الجلد سيعزز فقط هذه الخرافة اللاإنسانية والمقيتة، التي قُدمت لها العديد من التضحيات بالفعل. بالنسبة لجميع الجرائم، باستثناء الأسوأ منها، فإن الضرب هو العقوبة الواضحة، وبالتالي الطبيعية؛ والرجل الذي لا يستمع إلى العقل سيخضع للضرب. يبدو لي من الصواب والملائم أن تُفرض العقوبة الجسدية على الرجل الذي لا يملك شيئاً وبالتالي لا يمكن تغريمه، أو لا يمكن سجنه لأن مصالح سيده ستتضرر بفقدان خدمته. لا توجد حجج حقيقية ضد ذلك: فقط حديث عن كرامة الإنسان—حديث لا ينبع من أي مفاهيم واضحة حول الموضوع، بل من الخرافة الضارة التي وصفتها. أن هذه الخرافة هي التي تكمن في جوهر الأمر كله يثبتها مثال يكاد يكون مضحكاً. منذ وقت ليس ببعيد، في الانضباط العسكري للعديد من البلدان، تم استبدال السوط بالعصا. في كلتا الحالتين كان الهدف هو إحداث الألم الجسدي؛ لكن الطريقة الأخيرة لم تتضمن أي عار، ولم تكن مهينة للشرف.

بتعزيز هذه الخرافة، تلعب الدولة في أيدي مبدأ الشرف الفروسي، وبالتالي المبارزة؛ بينما في الوقت نفسه تحاول، أو على الأقل تدعي أنها تحاول، إلغاء المبارزة بالتشريع. كنتيجة طبيعية نجد أن هذا الجزء من نظرية أن القوة هي الحق، الذي وصل إلينا من أكثر أيام العصور الوسطى وحشية، لا يزال في هذا القرن التاسع عشر يتمتع بقدر كبير من الحياة—يا للعار علينا! لقد حان الوقت لطرد هذا المبدأ تماماً. في الوقت الحاضر، لا يُسمح لأحد بإجبار الكلاب أو الديوك على القتال مع بعضها البعض،—

على الأقل، في إنجلترا، يُعد ذلك جريمة يعاقب عليها القانون،—لكن الرجال يُدفعون إلى صراع مميت، ضد إرادتهم، بفضل هذا المبدأ السخيف والخرافي والعبثي، الذي يفرض علينا، كما يعلن مؤيدوه الضيقو الأفق، القتال مع بعضنا البعض مثل المصارعين، لأي تافهة. دعني أوصي أن يتبنى نقادنا تعبير "المبارزة" بدلاً من "المبارزة"، التي ربما تأتي إلينا، ليس من اللاتينية"duellum" ، بل من الإسبانية "duelo"،—بمعنى المعاناة، الإزعاج، المضايقة.

في كل الأحوال، قد نضحك على الإفراط البيداني الذي وصل إليه هذا النظام الأحمق. إنه لأمر مثير للاشمئزاز أن هذا المبدأ، بقانونه السخيف، يمكن أن يشكل قوة داخل الدولة - قوة يمكن تحريكها بسهولة، والتي لا تعترف بأي حق سوى القوة، وتستبد بالطبقات التي تقع ضمن نطاقها، من خلال الحفاظ على نوع من التفتيش، حيث يمكن لأي شخص أن يُستدعى لأتفه الأسباب، ويُحاكم في قضية حياة أو موت بينه وبين خصمه. هذا هو المكان الذي يمكن لأي وغد، إذا كان ينتمي إلى الطبقات المعنية، أن يهدد بل ويقضي على أنبل وأفضل الرجال، الذين يجب أن يكونوا بالطبع هدفاً للكراهية بالنسبة له. نظامنا القضائي وحماية الشرطة جعل من المستحيل في هذه الأيام لأي وغد في الشارع أن يهاجمنا بعبارة "أموالك أو حياتك!" يجب وضع حد للعبء الذي يثقل كاهل الطبقات العليا - العبء المتمثل في الاضطرار إلى الاستعداد في كل لحظة لتعريض الحياة والأطراف لرحمة أي شخص يتخذ في رأسه الأحمق أن يكون فظاً أو وقحاً أو أحمقاً أو خبيثاً. إنه لأمر فظيع أن يُصاب أو يُشوه أو حتى يُقتل زوج من الأولاد الحمقى العاطفيين، لمجرد أنهم تبادلوا بضع كلمات.

يمكن قياس قوة هذه السلطة الاستبدادية داخل الدولة، وقوة الخرافة، من خلال حقيقة أن الأشخاص الذين يُمنعون من استعادة شرفهم الفروسي بسبب الرتبة العليا أو الدنيا لمهاجمهم، أو أي شيء آخر يضع الأشخاص على مستوى مختلف، غالباً ما ينتهون بنهاية مأساوية كوميدية بالانتحار في يأس شديد. يمكنك عادةً معرفة

أن الشيء خاطئ وسخيف من خلال اكتشاف أنه إذا تم حمله إلى نتيجته المنطقية، فإنه يؤدي إلى تناقض؛ وهنا أيضاً لدينا سخافة واضحة جداً .فالمسؤول ممنوع من المشاركة في مبارزة؛ ولكن إذا تحداه أحد ورفض الخروج، يُعاقب بفصله من الخدمة.

وبما أنني في هذا الموضوع، دعني أكون أكثر صراحة. التمييز الهام، الذي غالباً ما يُصر عليه، بين قتل عدوك في قتال عادل بأسلحة متساوية، والكذب في كمين له، هو تماماً نتيجة لحقيقة أن السلطة داخل الدولة، التي تحدثت عنها، لا تعترف بأي حق آخر سوى القوة، أي حق الأقوى، وتستند إلى حكم الله كأساس للقانون بأكمله. لأن قتل رجل في قتال عادل، هو إثبات أنك متفوق عليه في القوة أو المهارة؛ ولتبرير الفعل، يجب أن تفترض أن حق الأقوى هو حق حقيقي.

لكن الحقيقة هي أنه إذا كان خصمي غير قادر على الدفاع عن نفسه، فإن ذلك يمنحني الإمكانية، ولكن ليس بأي حال من الأحوال الحق، في قتله. الحق، التبرير الأخلاقي، يجب أن يعتمد تماماً على الدوافع التي لدي لأخذ حياته .حتى لو افترضنا أن لدي دافعاً كافياً لأخذ حياة رجل، فلا يوجد سبب يجعلني أجعل موته يعتمد على ما إذا كنت أستطيع إطلاق النار أو المبارزة بشكل أفضل منه. في مثل هذه الحالة، لا يهم بأي طريقة أقتله، سواء هاجمته من الأمام أو الخلف. من الناحية الأخلاقية، حق الأقوى ليس أكثر إقناعاً من حق الأكثر مهارة؛ وهي المهارة التي تُستخدم إذا قتلت رجلاً بخيانة. القوة والمهارة في هذه الحالة متساويتان في الحق؛ في مبارزة، على سبيل المثال، كلاهما يدخل في اللعب؛ لأن الخداع هو مجرد اسم آخر للخيانة. إذا اعتبرت نفسي مبرراً أخلاقياً في أخذ حياة رجل، فمن الغباء أن أحاول أولاً معرفة ما إذا كان يمكنه إطلاق النار أو المبارزة بشكل أفضل مني؛ لأنه إذا كان يستطيع، فلن يكون قد أساء إلي فقط، بل أخذ حياتي أيضاً.

يرى روسو أن الطريقة المناسبة للانتقام من الإهانة ليست بمبارزة المعتدي، بل باغتياله. ومع ذلك، كان حذراً بما يكفي للإشارة إلى هذا الرأي بشكل غامض في

ملاحظة غامضة في أحد كتب "إميل". هذا يظهر الفيلسوف تحت تأثير خرافة الشرف الفروسي في العصور الوسطى، حيث يعتبر قتل رجل يتهمك بالكذب مبرراً، بينما كان يجب أن يعلم أن كل إنسان، وخاصة هو نفسه، يستحق أن يُتهم بالكذب مرات عديدة.

التحيز الذي يبرر قتل خصمك، طالما تم ذلك في مواجهة مفتوحة وبأسلحة متساوية، ينظر بوضوح إلى القوة على أنها الحق، والمبارزة كتدخل إلهي .الإيطالي الذي، في نوبة غضب، يهاجم المعتدي عليه أينما وجده ويقتله دون أي مراسم، يتصرف على الأقل بشكل متسق وطبيعي: قد يكون أكثر ذكاءً، لكنه ليس أسوأ من المبارز. إذا قلت إنني مبرر في قتل خصمي في مبارزة، لأنه في تلك اللحظة يبذل قصارى جهده لقتلي؛ يمكنني الرد بأن تحديك هو الذي وضعه في ضرورة الدفاع عن نفسه؛ وأنه بوضع الأمر على أساس الدفاع عن النفس، يسعى المتبارزون إلى ذريعة معقولة لارتكاب جريمة قتل. يجب أن أبرر الفعل بالمبدأ القانوني"Volenti non fit injuria" ؛ لأن الأطراف تتفق بشكل متبادل على وضع حياتها على المحك.

ومع ذلك، يمكن دحض هذا الحجة بإظهار أن الطرف المصاب ليس مصاباً برغبته؛ لأن هذا المبدأ الاستبدادي للشرف الفروسي، بقانونه السخيف، يجبر على الأقل أحد المتبارزين على مواجهة تحقيق دموي.

لقد كنت مطولاً بعض الشيء في موضوع الشرف الفروسي، لكن كان لدي سبب وجيه لذلك، لأن تنظيف الإسطبل الأوجياني من الفظائع الأخلاقية والفكرية في هذا العالم يمكن أن يتم فقط بمكنسة الفلسفة. هناك شيئان يجعلان الترتيبات الاجتماعية للحياة الحديثة تبدو غير مواتية مقارنة بالعصور القديمة، مما يعطي عصرنا مظهراً كئيباً ومظلماً وشريراً، وهو ما كانت العصور القديمة، الطازجة والطبيعية، خالية منه تماماً؛ أعني الشرف الحديث والمرض الحديث، "par—nobile fratrum!"—اللذان تضافرا لتسميم جميع علاقات الحياة، سواء كانت عامة

أو خاصة. يمتد تأثير الثاني من هذا الزوج النبيل إلى أبعد مما يبدو في البداية، ليس فقط كمرض جسدي، بل أيضاً كمرض أخلاقي. منذ أن وُجدت السهام المسمومة في جعبة كيوبيد، دخل عنصر عدائي، بل شيطاني، في علاقات الرجال والنساء، مثل خيط شرير من الخوف وعدم الثقة في نسيج تفاعلهم؛ مما يهز بشكل غير مباشر أسس الزمالة الإنسانية، وبالتالي يؤثر بشكل أو بآخر على مجرى الحياة بأكملها. لكن سيكون من خارج نطاق هدفي الحالي متابعة الموضوع أكثر.

تأثير مشابه لهذا، رغم أنه يعمل بطرق مختلفة، يمارسه مبدأ الشرف الفروسي، تلك المهزلة الجليلة التي كانت مجهولة في العالم القديم، والتي تجعل المجتمع الحديث متصلباً وكئيباً وخائفاً، وتجبرنا على مراقبة كل كلمة نقولها بأقصى درجات الحذر. وليس هذا كل شيء. هذا المبدأ هو مينوتور عالمي؛ والشركة الجيدة من أبناء البيوت النبيلة التي يطلبها كضريبة سنوية، تأتي ليس من بلد واحد فقط كما في السابق، بل من كل بلد في أوروبا. لقد حان الوقت لشن هجوم منتظم على هذا النظام الأحمق؛ وهذا ما أحاول القيام به الآن. ليت هذين الوحشين من العالم الحديث يختفيان قبل نهاية القرن!

دعونا نأمل أن تتمكن الطب من إيجاد وسيلة لمنع أحدهما، وأن الفلسفة، من خلال تنقية أفكارنا، قد تضع حداً للآخر: لأنه فقط من خلال تنقية أفكارنا يمكن القضاء على الشر. لقد حاولت الحكومات القيام بذلك من خلال التشريع، وفشلت.

ومع ذلك، إذا كانوا مهتمين حقاً بوقف نظام المبارزة؛ وإذا كان النجاح الضئيل الذي حققته جهودهم يرجع فقط إلى عدم قدرتهم على التعامل مع الشر، فلا مانع لدي من اقتراح قانون أضمن نجاحه. لن يتطلب أي إجراءات دموية، ويمكن تنفيذه دون اللجوء إلى المقصلة أو المشنقة، أو السجن مدى الحياة. إنه حبة صغيرة من العلاج المثلي، بدون آثار جانبية خطيرة. إذا أرسل أي رجل أو قبل تحدياً، دع العريف يأخذه أمام بيت الحراسة، وهناك يعطيه، في وضح النهار، اثني عشر ضربة بعصا على

الطريقة الصينية؛ على أن يتلقى الضابط غير المفوض أو الجندي ست ضربات. إذا حدثت مبارزة بالفعل، يجب اتخاذ الإجراءات الجنائية المعتادة.

قد يعترض شخص ذو مفاهيم فروسية على أن مثل هذه العقوبة قد تدفع رجل الشرف إلى الانتحار؛ لأجيب بأن من الأفضل لأحمق كهذا أن يقتل نفسه بدلاً من الآخرين. ومع ذلك، أعلم جيداً أن الحكومات ليست جادة حقاً في القضاء على المبارزة. المسؤولون المدنيون، وأكثر من ذلك، الضباط في الجيش، (باستثناء أولئك في المناصب العليا)، يتقاضون رواتب غير كافية بشكل كبير مقابل الخدمات التي يقدمونها؛ ويتم تعويض النقص بالشرف، الذي يتمثل في الألقاب والأوسمة، وبشكل عام، بنظام الرتب والتمييز. المبارزة هي، إذا جاز التعبير، حصان إضافي مفيد جداً للأشخاص ذوي الرتب: لذا يتم تدريبهم على معرفتها في الجامعات. الحوادث التي تحدث لأولئك الذين يستخدمونها تعوض بالدم عن نقص الأجر.

لإكمال المناقشة، دعني أذكر هنا موضوع الشرف الوطني. إنه شرف الأمة كوحدة في مجموعة الأمم. وبما أنه لا يوجد محكمة للاستئناف سوى محكمة القوة؛ وبما أن كل أمة يجب أن تكون مستعدة للدفاع عن مصالحها، فإن شرف الأمة يكمن في ترسيخ الرأي، ليس فقط بأنها يمكن الوثوق بها (ائتمانها)، ولكن أيضاً بأنها يجب أن تُخشى. يجب ألا يُسمح أبداً بمرور هجوم على حقوقها دون رد .إنه مزيج من الشرف المدني والفروسي.

5 - الشهرة

تحت عنوان المكانة في تقدير العالم، وضعنا الشهرة؛ ويجب علينا الآن أن نناقشها.

الشهرة والشرف توأمان؛ وتوأمان مثل كاستور وبولوكس، أحدهما كان فانياً والآخر لم يكن كذلك. الشهرة هي الأخ الخالد للشرف الزائل. أتحدث بالطبع عن أعلى أنواع الشهرة، أي الشهرة بالمعنى الحقيقي والصادق للكلمة؛ لأن هناك بالتأكيد أنواعاً عديدة من الشهرة، بعضها لا يدوم سوى يوم واحد. الشرف يتعلق فقط بالصفات التي يمكن توقعها من الجميع في ظروف مماثلة؛ أما الشهرة فتتعلق فقط بالصفات التي لا يمكن أن تُطلب من أي إنسان. الشرف يتعلق بالصفات التي يحق لكل شخص أن ينسبها لنفسه؛ أما الشهرة فتتعلق فقط بالصفات التي يجب أن تُترك للآخرين لينسبوها. بينما يمتد شرفنا بقدر ما يعرف الناس عنا؛ تسبقنا الشهرة وتجعلنا معروفين أينما وجدت طريقها. يمكن للجميع المطالبة بالشرف؛ لكن القليلين فقط يمكنهم المطالبة بالشهرة، لأنها لا تُنال إلا بفضل الإنجازات الاستثنائية.

هذه الإنجازات قد تكون من نوعين، إما أفعال أو أعمال؛ وبالتالي هناك طريقان مفتوحان للشهرة. في طريق الأفعال، القلب العظيم هو التوصية الرئيسية؛ وفي طريق الأعمال، العقل العظيم. لكل من الطريقين مزاياه وعيوبه الخاصة؛ والفرق الرئيسي بينهما هو أن الأفعال عابرة، بينما الأعمال تبقى .تأثير الفعل، مهما كان نبيلاً، يمكن أن يدوم لفترة قصيرة فقط؛ لكن عمل العبقرية هو تأثير حي، مفيد ونبيل عبر العصور. كل ما يمكن أن يبقى من الأفعال هو ذكرى، وتصبح ضعيفة ومشوهة بمرور الوقت—وهو أمر لا يهمنا، حتى يتم إخمادها تماماً؛ إلا إذا تناولها التاريخ، وقدمها، متحجرة، للأجيال القادمة. الأعمال خالدة في حد ذاتها، وبمجرد كتابتها، قد تعيش إلى الأبد .من الإسكندر الأكبر لدينا الاسم والسجل فقط؛ لكن أفلاطون وأرسطو، هوميروس وهوراس لا يزالون أحياء، ويعملون بشكل مباشر اليوم كما كانوا

في حياتهم .الفيدا وأوبنشادها لا تزال معنا: لكن من جميع الأفعال المعاصرة لم يصلنا أي أثر.

شهرة العمل العظيم تتميز بأنها تبدأ عادةً بانفجار مدوٍ، لدرجة أنه يُسمع في جميع أنحاء أوروبا. بينما شهرة العمل العظيم تبدأ ببطء وتدريجياً؛ فالضجيج الذي تحدثه يكون في البداية طفيفاً، لكنه يستمر في النمو حتى يصل في النهاية، بعد مئات السنين ربما، إلى قوته الكاملة؛ لكنه يبقى، لأن الأعمال تبقى، لآلاف السنين. أما في الحالة الأخرى، فعندما ينتهي الانفجار الأول، يتضاءل الضجيج الذي يحدثه ويُسمع من قبل عدد أقل وأقل من الأشخاص؛ حتى ينتهي بوجود العمل فقط كظل في صفحات التاريخ.

عيب آخر تعاني منه الأعمال هو أنها تعتمد على الصدفة لإمكانية وجودها؛ ومن ثم، فإن الشهرة التي تكسبها لا تنبع بالكامل من قيمتها الجوهرية، بل أيضاً من الظروف التي أضفت عليها أهمية وبريقاً. مرة أخرى، تعتمد شهرة الأعمال، إذا كانت شخصية بحتة كما في الحرب، على شهادة عدد قليل من الشهود؛ وهؤلاء ليسوا دائماً حاضرين، وحتى إذا كانوا حاضرين، فإنهم ليسوا دائماً مراقبين عادلين أو غير متحيزين. هذا العيب، مع ذلك، يعوضه حقيقة أن الأعمال لها ميزة كونها ذات طابع عملي، وبالتالي، ضمن نطاق الذكاء البشري العام؛ بحيث بمجرد الإبلاغ عن الحقائق بشكل صحيح، يتم تحقيق العدالة فوراً؛ إلا إذا كان الدافع الكامن وراء العمل غير مفهوم أو مقدر في البداية. لا يمكن فهم أي عمل حقاً بعيداً عن الدافع الذي دفعه.

الأمر مختلف تماماً مع الأعمال. إن نشأتها لا تعتمد على الصدفة، بل كلياً وبشكل كامل على مؤلفها؛ ومهما كانوا في أنفسهم ولأنفسهم، فإنهم يبقون طالما عاشوا. علاوة على ذلك، هناك صعوبة في الحكم عليها بشكل صحيح، والتي تصبح أصعب كلما ارتفع مستواها؛ غالباً لا يوجد أشخاص مؤهلون لفهم العمل، وغالباً لا يوجد نقاد غير متحيزين أو صادقين. شهرتها، مع ذلك، لا تعتمد على قاضٍ واحد فقط؛

يمكنها الاستئناف إلى آخر. في حالة الأعمال، كما قلت، فإن ذاكرتها فقط هي التي تنتقل إلى الأجيال القادمة، وذلك فقط في الشكل التقليدي؛ لكن الأعمال تُسلم نفسها، وباستثناء الأجزاء التي قد تكون فقدت، في الشكل الذي ظهرت فيه لأول مرة. في هذه الحالة، لا يوجد مجال لأي تشويه للحقائق؛ وأي ظرف قد يكون أثر عليها في أصلها، يزول مع مرور الوقت .بل إنه غالباً ما يكون بعد مرور الوقت فقط أن الأشخاص المؤهلين حقاً للحكم عليها يظهرون - نقاد استثنائيون يجلسون للحكم على أعمال استثنائية، ويقدمون أحكامهم الثقيلة بالتتابع. هذه الأحكام تشكل مجتمعة تقديراً عادلاً تماماً؛ وعلى الرغم من وجود حالات استغرق فيها الأمر مئات السنين لتشكيله، فإن مرور الوقت لا يمكنه عكس الحكم؛ - هكذا تكون شهرة العمل العظيم آمنة وحتمية.

ما إذا كان المؤلفون سيشهدون بزوغ شهرتهم يعتمد على الصدفة؛ وكلما كانت أعمالهم أعلى وأهم، قل احتمال حدوث ذلك. كان قول سينيكا رائعاً عندما قال إن الشهرة تتبع الجدارة كما يلقي الجسم ظلاً؛ أحياناً تسقط أمامه، وأحياناً خلفه. ويضيف قائلاً إنه على الرغم من أن حسد المعاصرين يظهر في صمت شامل، إلا أن هناك من سيحكم دون عداوة أو تحيز. من هذا القول يتضح أنه حتى في عصر سينيكا كان هناك أشرار يفهمون فن قمع الجدارة بتجاهل وجودها بشكل خبيث، وإخفاء العمل الجيد عن الجمهور لصالح السيئ: إنه فن مفهوم جيداً في عصرنا أيضاً، يظهر في مؤامرة حسد صامتة.

كقاعدة عامة، كلما طالت مدة شهرة الرجل، كلما تأخرت في الظهور؛ لأن جميع المنتجات الممتازة تتطلب وقتاً لتطويرها. الشهرة التي تدوم للأجيال القادمة تشبه شجرة البلوط، تنمو ببطء شديد؛ وتلك التي تدوم لفترة قصيرة، مثل النباتات التي تنبت في عام ثم تموت؛ بينما الشهرة الزائفة تشبه الفطر، تنبت في ليلة وتزول بسرعة.

ولماذا؟ لهذا السبب؛ كلما كان الرجل ينتمي للأجيال القادمة، بمعنى آخر، للبشرية بشكل عام، كلما كان غريباً على معاصريه؛ لأن عمله ليس موجهاً لهم كأفراد، بل لهم كجزء من البشرية ككل؛ لا يوجد في إنتاجاته ذلك اللون المحلي المألوف الذي يجذبهم؛ وبالتالي ما يفعله يفشل في الحصول على الاعتراف لأنه غريب.

الناس أكثر عرضة لتقدير الرجل الذي يخدم ظروف ساعته القصيرة، أو مزاج اللحظة، - ينتمي إليها، يعيش ويموت معها.

التاريخ العام للفن والأدب يظهر أن أعلى إنجازات العقل البشري، كقاعدة عامة، لا تُستقبل بشكل جيد في البداية؛ بل تبقى في الظلام حتى تلاحظها عقول عالية المستوى، وبفضل تأثيرها تُوضع في مكانة تحافظ عليها بفضل السلطة التي تُمنح لها.

إذا سُئل عن سبب ذلك، فسيُكتشف أنه في النهاية، يمكن للإنسان أن يفهم ويقدر حقاً تلك الأشياء التي تتشابه مع طبيعته. الشخص البليد سيحب ما هو بليد، والشخص العادي سيحب ما هو عادي؛ الرجل الذي أفكاره مختلطة سينجذب إلى الارتباك في التفكير؛ والحمق سيجذب من ليس لديه عقل على الإطلاق؛ ولكن أفضل من ذلك كله، سيحب الرجل أعماله الخاصة، لأنها تتوافق تماماً مع طبيعته. هذه حقيقة قديمة قدم إبيكارموس من الذاكرة الأسطورية:

}اليونانية: لا يوجد شيء مدهش في أن الناس يحبون أنفسهم، ويعتقدون أنهم في حالة جيدة؛ لأن أفضل شيء في العالم للكلب هو كلب؛ للثور، ثور؛ للحمار، حمار؛ وللخنزير، خنزير.

أقوى ذراع لا يمكنها أن تعطي دفعاً لشيء خفيف الوزن؛ لأنه بدلاً من أن يسرع في طريقه ويصيب هدفه بفعالية، سيسقط قريباً على الأرض، بعد أن يستهلك القليل

من الطاقة التي أُعطيت له، ولا يمتلك كتلة خاصة به ليكون وسيلة للزخم. هكذا هو الحال مع الأفكار العظيمة والنoble، بل وحتى روائع العبقرية، عندما لا يكون هناك سوى عقول صغيرة وضعيفة ومعوجة لتقديرها، وهو أمر قد أسف عليه حكماء العصور. على سبيل المثال، يقول يسوع بن سيراخ: "من يروي قصة لأحمق يتحدث إلى نائم: عندما ينتهي من قصته، سيقول، ما الأمر؟ "ويقول هاملت: "الكلام الخبيث ينام في أذن الأحمق." وغوته لديه نفس الرأي، حيث يقول إن الأذن البليدة تسخر من أذكى كلمة:

ويضيف أيضاً أنه لا ينبغي أن نشعر بالإحباط إذا كان الناس أغبياء، لأنك لا تستطيع صنع دوائر إذا رميت حجرك في مستنقع:

يسأل ليشتنبرغ: عندما يصطدم رأس وكتاب، ويصدر صوت أجوف، هل يكون دائماً الكتاب؟ وفي مكان آخر يقول: الأعمال مثل هذه هي كمرآة؛ إذا نظر حمار فيها، لا يمكنك أن تتوقع أن ترى رسولاً. يجب أن نتذكر رثاء جيلرت القديم والمؤثر، أن أفضل الهدايا تجد أقل عدد من المعجبين، وأن معظم الناس يخطئون بين السيء والجيد، - شر يومي لا يمكن منعه، مثل طاعون لا يمكن علاجه. هناك شيء واحد يجب القيام به، على الرغم من صعوبته! - يجب أن يصبح الحمقى حكماء، - وهذا لا يمكنهم أبداً. قيمة الحياة لا يعرفونها أبداً؛ يرون بالعين الخارجية ولكن ليس بالعقل، ويمدحون التافه لأن الجيد غريب عليهم:

إلى العجز الفكري الذي، كما يقول غوته، يفشل في التعرف على الخير وتقديره، يجب إضافة شيء يظهر في كل مكان، وهو الدناءة الأخلاقية للبشرية، هنا تأخذ شكل الحسد. الشهرة الجديدة التي يكتسبها الرجل ترفعه من جديد فوق رؤوس زملائه، الذين يتم تقليلهم بالتناسب. كل جدارة بارزة تُكتسب على حساب أولئك الذين لا يمتلكون شيئاً؛ أو كما يقول غوته في "الديوان الغربي الشرقي"، مدح الآخر هو تقليل من شأن الذات:

نرى إذن كيف أن التفوق، بغض النظر عن الشكل الذي يتخذه، يواجه مقاومة من قبل الوسطية، التي هي نصيب الغالبية العظمى، في مؤامرة لمقاومته، وإذا أمكن، قمعه. كلمة السر لهذه العصبة هي) "à bas le mérite" لتسقط الجدارة). بل وأكثر من ذلك؛ أولئك الذين حققوا شيئاً ما بأنفسهم ويتمتعون بقدر من الشهرة، لا يهتمون بظهور سمعة جديدة، لأن نجاحها قد يلقي بظلال على شهرتهم. ومن هنا، يعلن غوته أنه إذا كان علينا أن نعتمد في حياتنا على فضل الآخرين، لما عشنا أبداً؛ من رغبتهم في الظهور بمظهر مهم، يتجاهل الناس وجودنا بكل سرور:

لو كنت قد ترددت في أن أكون، حتى يمنحوني الحياة، لما كنت على الأرض حتى الآن، كما يمكنكم أن تفهموا، عندما ترون كيف يتصرفون، الذين، لكي يظهروا شيئاً، يودون إنكاري بكل سرور.الشرف، على العكس، يلقى تقديراً عادلاً بشكل عام، ولا يتعرض لهجوم الحسد؛ بل يُنسب لكل رجل امتلاكه حتى يثبت العكس. لكن الشهرة يجب أن تُكتسب رغم الحسد، والمحكمة التي تمنح الإكليل تتكون من قضاة متحيزين ضد المتقدم من البداية. الشرف هو شيء نحن قادرون ومستعدون لمشاركته مع الجميع؛ الشهرة تعاني من التعدي وتصبح أكثر صعوبة في الوصول إليها بقدر ما يحصل عليها المزيد من الناس. علاوة على ذلك، فإن صعوبة كسب الشهرة من خلال أي عمل معين تتناسب عكسياً مع عدد الأشخاص الذين من المحتمل أن يقرؤوه؛ ومن ثم، من الصعب جداً أن تصبح مشهوراً كمؤلف لعمل علمي مقارنة بكاتب يسعى فقط للتسلية. الأمر أصعب بكثير في حالة الأعمال الفلسفية، لأن النتيجة التي تهدف إليها تكون غامضة إلى حد ما، وفي نفس الوقت غير مفيدة من الناحية المادية؛ فهي تجذب بشكل رئيسي القراء الذين يعملون على نفس الخطوط.

من الواضح إذن، مما قلته عن صعوبة كسب الشهرة، أن أولئك الذين يعملون، ليس من حب لموضوعهم، ولا من متعة في متابعته، بل تحت تأثير الطموح، نادراً ما يتركون للبشرية إرثاً من الأعمال الخالدة. الرجل الذي يسعى لفعل ما هو جيد

وحقيقي، يجب أن يتجنب ما هو سيء، ويكون مستعداً لتحدي آراء العامة، بل وحتى احتقارها وقادتها المضللين. ومن هنا تأتي حقيقة القول، (التي أصر عليها بشكل خاص أوسوريوس دي غلوريا)، أن الشهرة تتجنب من يسعون إليها، وتبحث عن من يتجنبونها؛ لأن الأول يتكيف مع ذوق معاصريه، والآخر يعمل بتحدٍ له.

لكن، رغم صعوبة اكتساب الشهرة، فإن الحفاظ عليها بمجرد اكتسابها أمر سهل. هنا، مرة أخرى، الشهرة تتعارض بشكل مباشر مع الشرف، الذي يُفترض أن يُنسب للجميع. الشرف لا يجب أن يُكتسب؛ بل يجب فقط ألا يُفقد. ولكن هنا تكمن الصعوبة! لأن بفعل واحد غير جدير، يضيع الشرف بشكل لا رجعة فيه. لكن الشهرة، بمعناها الحقيقي، لا يمكن أن تختفي؛ لأن الفعل أو العمل الذي اكتُسبت من خلاله لا يمكن التراجع عنه؛ وتظل الشهرة مرتبطة بصاحبها، حتى لو لم يفعل شيئاً يستحقها من جديد. الشهرة التي تتلاشى أو تُنسى تثبت بذلك أنها زائفة، بمعنى آخر، غير مستحقة، وناتجة عن تقدير مبالغ فيه لعمل الشخص؛ ناهيك عن نوع الشهرة التي تمتع بها هيجل، والتي وصفها ليشتنبرج بأنها تُضخم من قبل مجموعة من الطلاب المعجبين - الصدى المدوي للرؤوس الفارغة؛ - مثل هذه الشهرة التي ستجعل الأجيال القادمة تبتسم عندما تصادف بنية لغوية غريبة، عش جميل مع الطيور التي طارت منذ زمن بعيد؛ ستطرق باب هذا الهيكل المتداعي من التقاليد وتجدها فارغة تماماً! - ليس حتى أثر لفكر يدعو المارة.

الحقيقة هي أن الشهرة لا تعني شيئاً سوى ما يكونه الإنسان مقارنة بالآخرين. إنها بطبيعتها نسبية، وبالتالي ذات قيمة غير مباشرة فقط؛ لأنها تتلاشى بمجرد أن يصبح الآخرون ما هو عليه الشخص المشهور. القيمة المطلقة يمكن أن تُنسب فقط لما يمتلكه الإنسان في جميع الظروف، - هنا، ما يكونه الإنسان مباشرة وفي ذاته. إنه امتلاك قلب عظيم أو عقل عظيم، وليس مجرد الشهرة بهما، هو ما يستحق الامتلاك ويؤدي إلى السعادة. ليس الشهرة، بل ما يستحق أن يكون مشهوراً، هو ما يجب أن

يقدره الإنسان. هذا هو، كما لو كان، الجوهر الحقيقي، والشهرة مجرد عرض، يؤثر على موضوعها بشكل رئيسي كنوع من الأعراض الخارجية، التي تؤكد رأي الشخص في نفسه. الضوء لا يكون مرئياً إلا إذا التقى بشيء يعكسه؛ والموهبة تكون واثقة من نفسها فقط عندما تُشهر. لكن الشهرة ليست عرضاً مؤكداً للجدارة؛ لأنك يمكن أن تحصل على واحدة دون الأخرى؛ أو كما يقول ليسينج بشكل جميل، بعض الناس يحصلون على الشهرة، والبعض الآخر يستحقها.

سيكون وجوداً بائساً أن يجعل قيمته أو عدم قيمته تعتمد على ما يعتقده الآخرون؛ ولكن هذا سيكون حال البطل أو العبقري إذا كانت قيمته تكمن في الشهرة، أي في تصفيق العالم. كل إنسان يعيش ويكون على حسابه الخاص، وبالتالي، بشكل رئيسي في ومن أجل نفسه؛ وما هو عليه وكل طريقة وجوده تهمه أكثر من أي شخص آخر؛ لذا إذا لم يكن ذا قيمة في هذا الصدد، فلا يمكن أن يكون ذا قيمة بأي شكل آخر. الفكرة التي يشكلها الآخرون عن وجوده هي شيء ثانوي، مشتق، معرض لكل فرص القدر، وفي النهاية تؤثر عليه بشكل غير مباشر فقط. بالإضافة إلى ذلك، رؤوس الآخرين مكان بائس ليكون موطن السعادة الحقيقية للإنسان - سعادة خيالية ربما، ولكن ليست حقيقية.

ويا لها من مجموعة متنوعة تسكن معبد الشهرة العالمية! - جنرالات، وزراء، دجالون، بهلوانات، راقصون، مغنون، مليونيرات ويهود! إنه معبد تُمنح فيه تقديرات أكثر صدقاً واحتراماً حقيقياً لمزايا هؤلاء الأشخاص، أكثر من التفوق العقلي، حتى من الدرجة العالية، الذي يحصل من الأغلبية العظمى على اعتراف لفظي فقط.

من وجهة نظر السعادة البشرية، الشهرة ليست سوى لقمة نادرة ودقيقة للشهية التي تتغذى على الكبرياء والغرور - شهية موجودة بدرجة مفرطة في كل إنسان، وربما تكون الأقوى في أولئك الذين يضعون قلوبهم على أن يصبحوا مشهورين بأي ثمن. هؤلاء الأشخاص عادة ما ينتظرون بعض الوقت في حالة من عدم اليقين بشأن

قيمتهم الخاصة، قبل أن تأتي الفرصة التي ستثبت قيمتهم وتظهر للآخرين ما هم مصنوعون منه؛ ولكن حتى ذلك الحين، يشعرون كما لو كانوا يعانون من ظلم سري.

}هامش: أعظم متعتنا تكمن في أن نكون معجبين؛ ولكن أولئك الذين يعجبون بنا، حتى لو كان لديهم كل الأسباب للقيام بذلك، يترددون في التعبير عن مشاعرهم. لذا فإن أسعد إنسان هو الذي، بغض النظر عن الكيفية، يتمكن بصدق من الإعجاب بنفسه - طالما أن الآخرين يتركونه وشأنه{.

ولكن، كما أوضحت في بداية هذا الفصل، يتم وضع قيمة غير معقولة على رأي الآخرين، وهي قيمة غير متناسبة مع قيمتها الحقيقية. لدى هوبز بعض الملاحظات القوية حول هذا الموضوع؛ ولا شك أنه على حق. المتعة العقلية، والنشوة من أي نوع، تنشأ عندما، عند مقارنة أنفسنا بالآخرين، نصل إلى استنتاج مفاده أنه يمكننا التفكير بشكل جيد عن أنفسنا. لذا يمكننا بسهولة فهم القيمة الكبيرة التي تُعطى دائماً للشهرة، باعتبارها تستحق أي تضحيات إذا كان هناك أدنى أمل في تحقيقها.

الشهرة هي الحافز الذي يرفع الروح النقية)التي لديها ضعف في العقل النبيل (لاحتقار الملذات والعيش أياماً شاقة

ومرة أخرى:

كم هو صعب تسلق

القمم حيث يضيء معبد الشهرة بفخر من بعيد!

يمكننا أن نفهم كيف أن أكثر الناس غروراً في العالم يتحدثون دائماً عن "la gloire" (المجد)، بإيمان مطلق بأنها حافز للأعمال العظيمة والإنجازات الكبيرة. ولكن لا شك أن الشهرة شيء ثانوي في طبيعتها، مجرد صدى أو انعكاس - كما لو كانت ظلاً أو

عرضاً - للجدارة: وفي أي حال، ما يثير الإعجاب يجب أن يكون أكثر قيمة من الإعجاب نفسه. الحقيقة هي أن الإنسان يصبح سعيداً، ليس بالشُهرة، بل بما يجلب له الشهرة، بجداراته، أو بشكل أدق، بالاستعداد والقدرة التي تنبع منها جداراته، سواء كانت أخلاقية أو عقلية. الجانب الأفضل من طبيعة الإنسان يجب أن يكون بالضرورة أكثر أهمية له من أي شخص آخر: انعكاسه، الرأي الذي يوجد في رؤوس الآخرين، هو أمر يمكن أن يؤثر عليه بدرجة ثانوية فقط. من يستحق الشهرة دون الحصول عليها يمتلك العنصر الأكثر أهمية للسعادة، والذي يجب أن يعزيه عن فقدان الآخر. ليس أن يُعتقد أن الإنسان عظيم من قبل جماهير غير كفؤة وغالباً ما تكون مفتونة، بل أنه حقاً عظيم، هو ما يجب أن يدفعنا إلى حسد مكانته؛ وسعادته تكمن، ليس في أن الأجيال القادمة ستسمع عنه، بل في أنه خالق أفكار تستحق أن تُحفظ وتُدرس لمئات السنين.

بالإضافة إلى ذلك، إذا فعل الإنسان هذا، فإنه يمتلك شيئاً لا يمكن انتزاعه منه؛ وعلى عكس الشهرة، فهو امتلاك يعتمد بالكامل على نفسه. إذا كانت الإعجاب هدفه الرئيسي، فلن يكون هناك شيء فيه يستحق الإعجاب. هذا هو ما يحدث في حالة الشهرة الزائفة، أي غير المستحقة؛ لأن متلقيها يعيش عليها دون أن يمتلك فعلياً الأساس الصلب الذي تكون الشهرة علامة خارجية ومرئية له. الشهرة الزائفة غالباً ما تجعل صاحبها يشعر بالاشمئزاز من نفسه؛ لأن الوقت قد يأتي عندما، على الرغم من الأوهام الناتجة عن حب الذات، يشعر بالدوار على القمم التي لم يكن من المفترض أن يتسلقها، أو ينظر إلى نفسه كعملة مزيفة؛ وفي عذاب الاكتشاف المهدد والانحطاط المستحق، سيقرأ حكم الأجيال القادمة على جباه الحكماء - مثل رجل يدين بممتلكاته لوصية مزورة.

الشهرة الحقيقية، الشهرة التي تأتي بعد الموت، لا يسمع بها متلقيها أبداً؛ ومع ذلك يُطلق عليه رجل سعيد.

سعادته كانت تكمن في امتلاك تلك الصفات العظيمة التي جلبت له الشهرة، وفي الفرصة التي أتيحت له لتطويرها - الفراغ الذي كان لديه ليفعل ما يشاء، ليكرس نفسه لمتابعة اهتماماته المفضلة. فقط العمل الذي يُنجز من القلب هو الذي يحصل على الإكليل.

عظمة الروح، أو ثروة العقل، هي ما يجعل الإنسان سعيداً - العقل، الذي عندما يُطبع على إنتاجاته، سيحصل على إعجاب القرون القادمة، - الأفكار التي تجعله سعيداً في الوقت الحالي، وستكون بدورها مصدراً للدراسة والبهجة لأعظم العقول في الأجيال البعيدة. قيمة الشهرة بعد الموت تكمن في استحقاقها؛ وهذا هو مكافأتها الخاصة. سواء حصلت الأعمال المخصصة للشهرة على الشهرة في حياة مؤلفها أم لا، هو أمر يعتمد على الحظ، وليس له أهمية كبيرة. لأن الإنسان العادي ليس لديه قوة نقدية خاصة به، وغير قادر تماماً على تقدير صعوبة العمل العظيم. الناس دائماً يتأثرون بالسلطة؛ وحيثما تكون الشهرة واسعة الانتشار، فهذا يعني أن تسعة وتسعين من كل مائة يأخذونها على الإيمان فقط. إذا كان الإنسان مشهوراً على نطاق واسع في حياته، فإنه، إذا كان حكيماً، لن يضع قيمة كبيرة عليها، لأنها ليست أكثر من صدى لبضع أصوات، التي لمستها فرصة اليوم لصالحه.

هل سيشعر الموسيقي بالإطراء من التصفيق الحار للجمهور إذا علم أنهم جميعاً تقريباً صم، وأنهم، لإخفاء عجزهم، بدأوا في التصفيق بحماس بمجرد أن رأوا شخصاً أو اثنين يصفقان؟ وماذا سيقول إذا علم أن هؤلاء الأشخاص قد تلقوا رشاوى للحصول على أعلى تصفيق لأفقر عازف!

من السهل أن نفهم لماذا نادراً ما تتحول الثناءات المعاصرة إلى شهرة بعد الوفاة. دالامبير، في وصف رائع لمعبد الشهرة الأدبية، يلاحظ أن قدس الأقداس في المعبد يسكنه العظماء الذين لم يكن لهم مكان فيه أثناء حياتهم، وعدد قليل جداً من الأشخاص الأحياء، الذين يتم طردهم جميعاً تقريباً عند وفاتهم. دعني ألاحظ،

بالمناسبة، أن إقامة نصب تذكاري لشخص في حياته يعادل القول بأن الأجيال القادمة لا يمكن الوثوق في حكمها عليه. إذا حدث أن يرى الإنسان شهرته الحقيقية، فإنه نادراً ما يكون قبل أن يصبح عجوزاً، رغم أن هناك فنانين وموسيقيين كانوا استثناءً لهذه القاعدة، ولكن عدد قليل جداً من الفلاسفة. هذا ما تؤكده صور الأشخاص المشهورين بأعمالهم؛ لأن معظمها يتم التقاطها فقط بعد أن يصل موضوعها إلى الشهرة، وعادة ما تصورهم وهم كبار في السن وشيب؛ خاصة إذا كانت الفلسفة هي عمل حياتهم. من وجهة نظر السعادة، هذا ترتيب مناسب جداً؛ لأن الشهرة والشباب أكثر من اللازم لإنسان في وقت واحد .الحياة عمل شاق لدرجة أن الاقتصاد الصارم يجب أن يُمارس في الأشياء الجيدة. الشباب لديه ما يكفيه ويجب أن يكتفي بما لديه. ولكن عندما تتلاشى أفراح الحياة في الشيخوخة، كما تتساقط أوراق الشجر في الخريف، تزهر الشهرة في الوقت المناسب، مثل نبات أخضر في الشتاء. الشهرة هي، كما كانت، الثمرة التي يجب أن تنمو طوال الصيف قبل أن يمكن الاستمتاع بها في عيد الميلاد. لا يوجد عزاء أكبر في الشيخوخة من الشعور بأنك وضعت كل قوة شبابك في أعمال لا تزال شابة.

أخيراً، دعونا نفحص عن كثب أنواع الشهرة التي ترتبط بمختلف المساعي الفكرية؛ لأن الشهرة من هذا النوع هي التي تهمني بشكل مباشر.

أعتقد أنه يمكن القول بشكل عام أن التفوق العقلي الذي تشير إليه يتكون من تشكيل نظريات، أي تركيبات جديدة لحقائق معينة. قد تكون هذه الحقائق من أنواع مختلفة جداً؛ ولكن كلما كانت معروفة بشكل أفضل، وكلما كانت ضمن التجربة اليومية، كانت الشهرة التي يمكن الحصول عليها من التنظير حولها أكبر وأوسع.

على سبيل المثال، إذا كانت الحقائق المعنية هي الأرقام أو الخطوط أو فروع خاصة من العلوم، مثل الفيزياء، علم الحيوان، علم النبات، علم التشريح، أو المقاطع الفاسدة في المؤلفين القدماء، أو النقوش غير القابلة للفك، المكتوبة، ربما، في أبجدية

غير معروفة، أو النقاط الغامضة في التاريخ؛ فإن نوع الشهرة التي يمكن الحصول عليها من التعامل الصحيح مع هذه الحقائق لن يمتد كثيراً إلى ما بعد أولئك الذين يدرسونها - عدد قليل من الأشخاص، معظمهم يعيشون حياة منعزلة ويشعرون بالغيرة من الآخرين الذين يصبحون مشهورين في فرعهم الخاص من المعرفة.

ولكن إذا كانت الحقائق معروفة للجميع، مثل الخصائص الأساسية للعقل البشري أو القلب البشري، التي يشترك فيها الجميع على حد سواء؛ أو القوى الفيزيائية العظيمة التي تعمل باستمرار أمام أعيننا، أو المسار العام للقوانين الطبيعية؛ فإن نوع الشهرة التي يمكن تحقيقها من خلال نشر نظرية جديدة وواضحة حولها، هو نوع من الشهرة التي ستمتد بمرور الوقت إلى جميع أنحاء العالم المتحضر: لأنه إذا كانت الحقائق مفهومة للجميع، فإن النظرية ستكون مفهومة بشكل عام أيضًا. ولكن مدى الشهرة سيعتمد على الصعوبات التي تم التغلب عليها؛ وكلما كانت الحقائق معروفة بشكل عام، كان من الصعب تكوين نظرية جديدة وصحيحة: لأن العديد من العقول ستكون قد انشغلت بها، ولن يكون هناك إمكانية كبيرة لقول شيء لم يُقال من قبل.

من ناحية أخرى، الحقائق التي لا يمكن الوصول إليها للجميع، والتي يمكن الحصول عليها فقط بعد الكثير من الصعوبة والجهد، غالبًا ما تتيح فرصًا لتطوير تركيبات ونظريات جديدة. إذا تم تطبيق الفهم السليم والحكم عليها - وهي صفات لا تتطلب قوة عقلية عالية جدًا - فقد يكون الشخص محظوظًا بما يكفي لاكتشاف نظرية جديدة وصحيحة. ولكن الشهرة التي تُكتسب في مثل هذه المسارات لا تمتد كثيرًا إلى ما بعد أولئك الذين يمتلكون معرفة بالحقائق المعنية. حل مشاكل من هذا النوع يتطلب، بلا شك، الكثير من الدراسة والجهد للوصول إلى الحقائق؛ بينما في المسار الذي يمكن تحقيق الشهرة الأكبر والأوسع فيه، يمكن فهم الحقائق دون أي جهد على الإطلاق. ولكن بقدر ما يتطلب الأمر جهدًا أقل، يتطلب المزيد من الموهبة

أو العبقرية؛ وبين هذه الصفات والكدح في البحث لا يمكن إجراء مقارنة، سواء من حيث قيمتها الجوهرية، أو من حيث التقدير الذي تُحظى به.

وهكذا، يجب على الأشخاص الذين يشعرون بأن لديهم قدرة عقلية صلبة وحكمًا سليمًا، ومع ذلك لا يمكنهم الادعاء بامتلاك أعلى القوى العقلية، ألا يخافوا من الدراسة الشاقة؛ لأنه بمساعدتها يمكنهم رفع أنفسهم فوق الحشد الكبير من البشر الذين لديهم الحقائق أمام أعينهم باستمرار، والوصول إلى تلك الأماكن المنعزلة التي يمكن الوصول إليها من خلال الجهد العلمي. لأن هذا مجال حيث يوجد عدد أقل بكثير من المنافسين، ويمكن لشخص ذو قدرة متوسطة فقط أن يجد قريبًا فرصة لإعلان نظرية جديدة وصحيحة؛ بل إن ميزة اكتشافه ستعتمد جزئيًا على صعوبة الوصول إلى الحقائق. ولكن التصفيق من زملاء الدراسة، الذين هم الأشخاص الوحيدون الذين لديهم معرفة بالموضوع، يبدو ضعيفًا جدًا للجمهور البعيد. وإذا تابعنا هذا النوع من الشهرة بما فيه الكفاية، سنصل في النهاية إلى نقطة حيث تكون الحقائق التي يصعب الوصول إليها كافية بحد ذاتها لتأسيس الشهرة، دون أي ضرورة لتكوين نظرية؛ مثل الرحلات، على سبيل المثال، في البلدان النائية والقليلة المعرفة، التي تجعل الشخص مشهورًا بما رآه، وليس بما فكر فيه. الميزة الكبيرة لهذا النوع من الشهرة هي أن رواية ما رآه الشخص أسهل بكثير من نقل أفكاره، والناس يميلون إلى فهم الأوصاف بشكل أفضل من الأفكار، ويقرؤون الأولى بسهولة أكبر من الثانية. عندما يخرج المرء في رحلة، يكون لديه قصة يرويها.

ومع ذلك، فإن التعرف الشخصي على المسافرين المشهورين غالبًا ما يذكرنا ببيت من شعر هوراس: "المشاهد الجديدة لا تعني دائمًا أفكارًا جديدة". ولكن إذا وجد الإنسان نفسه يمتلك قدرات عقلية عظيمة، تلك التي يجب أن تتجرأ وحدها على حل أصعب المشكلات على الإطلاق - تلك التي تتعلق بالطبيعة ككل والإنسانية في أوسع نطاقاتها - فسيكون من الحكمة أن يوسع نظرته في جميع الاتجاهات، دون أن

يضل بعيدًا في تعقيدات المسارات الفرعية المختلفة، أو يغزو مناطق غير معروفة؛ بمعنى آخر، دون أن يشغل نفسه بفروع المعرفة الخاصة، ناهيك عن تفاصيلها الصغيرة. لا حاجة له للبحث عن مواضيع يصعب الوصول إليها، للهروب من حشد المنافسين؛ فالأشياء العادية في الحياة ستوفر له مادة لنظريات جديدة وجادة وصحيحة في آن واحد؛ والخدمة التي يقدمها ستُقدَّر من قبل جميع أولئك - وهم يشكلون جزءًا كبيرًا من البشرية - الذين يعرفون الحقائق التي يعالجها. يا له من فرق شاسع بين طلاب الفيزياء، الكيمياء، التشريح، علم المعادن، علم الحيوان، علم اللغة، التاريخ، وبين الرجال الذين يتعاملون مع الحقائق العظيمة للحياة البشرية.

نهاية

في هذا الكتاب، يناقش شوبنهاور مفهوم السعادة وكيفية تحقيقها من خلال التركيز على ثلاثة جوانب رئيسية:

ما نحن عليه: يشدد شوبنهاور على أهمية الصحة العقلية والجسدية، ويعتبر أن السعادة تبدأ من الداخل. ينصح بالابتعاد عن القلق والتوتر والتركيز على تنمية الذات.

ما نملكه: يرى شوبنهاور أن الممتلكات المادية ليست المصدر الرئيسي للسعادة. بدلاً من ذلك، ينصح بالتركيز على الأشياء التي تجلب السعادة الحقيقية مثل العلاقات الجيدة والهوايات الممتعة.

ما نمثله في نظر الآخرين: يتحدث عن أهمية السمعة والمكانة الاجتماعية، لكنه يحذر من الاعتماد الكامل على آراء الآخرين لتحقيق السعادة.

شوبنهاور يقدم نصائح عملية لتحقيق حياة سعيدة من خلال التحكم في الإرادة، والعيش في اللحظة الحالية، والابتعاد عن الرغبات الزائدة.

